توران

سجن التسعة أبواب

رواية خيالية

حسام الدين مصطفى عبيد

كافة حقوق المؤلف محفوظة

مقدمة

الأحلام ليست جبرًا علينا ولا ممنوعة عنا, وأننا بمقدورنا أن نحلم كيفما نشاء ولا مسائلة على أحلامنا ولا أمانينا إلا إن كان لها أثر ونتيجة سلبية في أرض الواقع فحينها تستحق العقاب وذلك لا يحدث إلا إذا كانت ذات طابع سيء أما إذا كانت ذات هدف جمالي فلا عقاب عليها، فإذا كنت تعتقد أننا سنحاسب على ما نرى في مناومنا من أحلام فلا تقرأ هذا المؤلف.

(أنا أحمل غرسًا فلا تقتلون)

بتلك الكلمات وبهذه العبارة حاول «توران» الدفاع عن حياته من الخطر الذي تعرض له من قِبل عصابة من المغيرين الشماليين على قريته الصغيرة التي يسكن فيها والواقعة على الطرف الغربي من مملكة بابل القديمة والتي كانت تسمى بأرض شنعار.

حيث كان هؤلاء الغزاة المغيرون على تلك القرية والقرى الأخرى لا يقتلون ولا يأسرون المزارعين؛ لأنهم كانوا يعتمدون بالأساس على غلاتهم ونتاج محاصيلهم الزراعية، فكان هذا بالأصل هو قانونهم وعلة ذلك أن هؤلاء المغيرون قادمون من أماكن وعرة جدباء لا خير فيها فلا تصلح فيها الزراعة، فكان عملهم هو نهب محاصيل المزارعين المسالمين من سكان هذه القرى ليقتاتوا منها وذلك في مقابل الإبقاء على حياتهم سالمين آمنين من شرورهم.

وبعد أن تأكد هؤلاء المغيرون على قرية «توران» من صحة دفاعه عن نفسه وأنه على حق مزارع كما قال لهم؛ أمر أحدهم وهو قائدهم نفرًا منهم بأن يرافقوه إلى مخزن غلال حقله ليستولوا على ما يجدوه من حبوب وثمار على أن يتركوا «توران» بعد ذلك ويطلقوا سراحه.

وبعد أن أرشدهم «توران» إلى بغيتهم وأخذوا كل ما استطاعوا حمله دفعوه بقوة فوقع على الأرض جاثيًا من أثر تلك الدفعة ثم تركوه ورحلوا وهم يسخرون منه.

فقال «توران» في نفسه وهو ينفض الغبار عن ثيابه: «لقد جعلتني الآلهة أسترحم هؤلاء الأوغاد، لقد سرقوا غلة هذا الموسم، كيف يمكنني أن أطعم نفسي وأهلي في هذا الوقت من العام».

ثم عزم «توران» الذهاب إلى بيته حيث وجد زوجته «إيشاهات» تنتظره على حذر وخوف عليه من غارة أولئك اللصوص، فإذا هي أمام باب بيته واقفة يبدو على وجهها ملامح الخوف والقلق و»توران» يدفع الباب بكلتا يديه ويدخل واجمًا مطأطئ الرأس ثم تغلقه زوجته من ورائه، وهي تسأله عن حاله وعما حدث معه، وإذا ما كان قد أصابه مكروه.

فقال لها: أنا بخير ولم يحدث لي مكروه.

ولكنه في الواقع قد أصابته هزيمة نفسية لعجزه الدفاع عن رزقهما وقوتهما، وفي أثناء ذلك كانا يسمعان صرخات عن بعد من أهل القرية وسماعهما لبكاء الأطفال حيث كان المغيرون يستنزفون ثرواتهم ويسبون فتياتهم، وقليل من أهل القرية من يملكون ثروات والأكثرية هم فقراء ومنهم «توران» وزوجته لا يملكون غير قوتهم اليومي وغلتهم يستخدمونها كبضاعة للمقايضة.

قالت «إيشاهات» لزوجها على لهفة: الشكر للآلهة على سلامتك.

فـرد «تـوران» عـلى زوجتـه حزينًـا: لقـد سُرِقَ محصـول هـذا الموسـم وأخـذوه كلـه ولم يتركـوا لنـا منـه شـيئًا.

فقالـت لـه: إذًا لـن نعتمـد في طعامنـا إلا عـلى جمـع والتقـاط الثـمار مـن الأشـجار ومـا قـد خزنتـه مـن حبـوب مـن قبـل داخـل البيـت.

فقال لها: هذا قد لا يكفينا.

فـردت «إيشـاهات» مواسـية لـه: لا تحـزن وكفـى بالآلهـة شـكرًا عـلى عودتـك سـالمًا بغـير أذى أو سـوء.

ثـم هبـت واقفـة واسـتدارت متجهـة إلى غرفـة التخزيـن قائلـة لـه: سـأعد لـك قليـلاً مـن الطعـام والـشراب.

وذهبت عامدة إلى إعداد الطعام وطهوه، ولكنه قال لها: لقد كفت أصوات الصراخ معنى ذلك أن هؤلاء المغيرون قد ذهبوا سأخرج الآن للاطمئنان على من حولنا من أهل قريتنا وسأعود عند مغيب الشمس.

«تـوران» رجـلٌ في العقـد الرابـع مـن عمـره ذو ملامـح حسـنة بهـي الطلعـة ولـه نظـرات حـادة طويـل القامـة خشـن الكفـين مـن أثـر عملـه في الزراعــة، كان إذا تكلــم تخــرج ألفاظــه واضحــة ومميــزة، وزوجتــه «إيشـاهات» تصغـره ببضـع سـنين تملؤهـا محاسـن الأنوثـة وحنيـة الصـوت وكان لا يشـغل حياتهـا إلا إرضاءهـا لزوجهـا والعنايـة ببيتهـا رغـم عـدم إنجابهـما لأطفـال.

وبعـد أن تنـاولا الطعـام بـدأت مناقشـتهما عـما يدبرانـه مـن أمرهـما

هـما وأهـل قريتهـما الضعفـاء خاصـة الفقـراء والمكلومـين ممـن فقـدوا رجالهـم وأقواتهـم في هـذه الغـارة البربريـة.

فقالـت «إيشـاهات» لزوجهـا «تـوران»: أظـن أن الآلهـة غاضبـة عـلى أهـل هـذا الـوادي.

فـرد عليهـا: إن الآلهـة لا يتحـرك لهـا سـاكن رغـم صرخـات الضعفـاء وعويـل النسـاء وبـكاء الأطفـال وكأنهـم لا يـرون ولا يسـمعون.

فقالـت لـه «إيشـاهات»: كلا إن الآلهـة تسـمع نـداء المسـتغيثين والعابديـن وتشـاهد أفعـال النـاس.

فقـال لهـا «تـوران»: وإن شـئتِ وأكملـتِ قولـك بأنهـم ربمـا يشـاهدون تلـك الجرائـم ويسـتمتعون بذلك.

فقامـت «إيشـاهات» ووضعـت يدهـا عـلى فـم زوجهـا وهـي تقـول لـه: اصمـت حتـى لا تسـمعك أرواحهـم فيـأذوك أو ينالـوا منـك.

فـرد عليهـا قائـلاً: لا تخـافي هكـذا لـو كانـوا يسـمعون لسـمعوا بـكاء الأطفـال فهـذا أولى.

فقالـت لـه وهـي متنبهـة لحـواره: ألا تذكـر مـا سـمعناه عـن الآبـاء والأجـداد حينـما غضبـت الآلهـة ومـلأت الأرض بالميـاه وهلـك بـشرٌ كثـير.

فـرد عليهـا «تـوران» وهـو مبتسـم: بـل بكـت السـماء والأرض دموعًـا غزيـرة ومـن كثرتهـا طغـى المـاء عـلى سـطح الأرض وغمرتـه وذلـك حزنًـا عـلى فـراق كثـير مـن الأخيـار وقـد ذرتهـم الآلهـة لغـرض أن يُنـسى أمرهـم وتُمحـى ذكراهـم.

فقالت له «إيشاهات» مستفسرة عما قاله لها زوجها: أتقول إن الآلهة وكبيرهم «مردوخ» لا يحب كثيرًا من الأخيار ويحكم عليهم بالشقاء.

فـرد عليهـا زوجهـا: هـذا الاحتـمال ربمـا يكـون صحيحًـا، ثـم تنهـد وقـال: لـولا نعلـم مـا أخفـي عنـا؟

فقالت له زوجته: أتريد أن تعلم علم الآلهة ونحن ضعفاء فانون.

فرد عليها: ليس لهذا الحد أقصد.

ثـم قالـت مردفـة لقولهـا: في النهايـة لـك شـأنك ولهـم شـأنهم، لا تطلـع إلى مـا ليـس لـك بـه غايـة، فلـو علمـت علـمًا فـلا تنـس ضعـف قوتـك وهـلاك مادتـك.

ثـم سـكتت قليـلاً وأكملـت: نحـن لا نملـك الآن غـير قـوت يومنـا وفي حـيرة مـن أمرنـا وعـن يومنـا التـالي هـذا فقـط مـا يجـدر أن نفكـر فيـه.

فـرد عليهـا «تـوران» وهـو حزيـن: بـلى هـذا فقـط مـا يشـغلنا ومـا يجـب أن نفكـر فيـه، فعلينـا أن نحـذو حـذو باقـي النـاس.

فقالـت «إيشـاهات» مكملـة لـكلام زوجهـا: نعـم مـن النـاس كأهـل قريتنـا فيـما يجـب علينـا وعليهـم أن نفعلـه تجـاه شـتى أمورنـا والمخاطـر التـي نتعـرض لهـا.

فـرد عليهـا « تـوران»: معـك حـق فهنـاك أمـور لا يجـب أن نخـوض فيهـا وأماكـن لا يجـب أن نخطـو عتباتهـا.

تذكر تذكر

كان «توران» يسير منفردًا على ضفة النهر يشاهد مغيب الشمس وأثناء سيره رأى رجالاً يصطادون من على قواربهم يلقون بشباكهم في مياه النهر على أمل أن يكرمهم بصيدٍ وفير من الأسماك، ثم سار خطوات قليلة فشاهد عددًا من أتباع الديانة الصابئة يقومون بتعميد نفرًا منهم داخل النهر بأن يقوموا بتغطيس رؤوسهم داخل الماء ثم يرفعونها ويكررون ذلك الفعل مرات عديدة ثم يخرجون من ماء النهر ويأتي آخرون ليقوموا بنفس الفعل تارة أخرى.

ثم اتجه بالسير قدمًا ليخوض داخل الأشجار ليفحصها ويرى بعينيه هل أتت ثمارها ونضجت أم ليس بعد فيتفقد الأشجار بأنواعها المختلفة فهي ليست في حيازة أحد من المزارعين، فمد يده يمسك بالغصن تلو الغصن فيقربه إليه ثم يقطف الثمار الناضجة يتذوق منها جزء ويدخر الجزء الآخر ويضعها في حاملة لها معه، ثم مضي قدمًا حتى اقترب أكثر من شاطئ النهر فمد يديه باسطًا إياهما ليغترف من ماء النهر ليقربها إلى فيه فيشرب ويرتوي ظمأه، ولكن بينما يمد «توران» يديه إذا بيد تدفعه من وراء ظهره ليسقط وبالفعل سقط في النهر من أثر قوة الدفعة فيحاول أن يرفع رأسه ليرى من فعل هذا به وليخرج من النهر وبينما هو يحاول فإذا بيدين من

أسفل قدميه داخل النهر تسحبانه إليها وتغطسه فيه مرة أخرى، فيحاول «توران» أن يرفع رأسه ليخرج من الماء كي يتنفس فإذا من يغطسه فيها مرة أخرى ثم تكرر نفس الفعل فظن أنه هناك من يتعمد أن يغرقه فأخذ يلوح بيديه وهو يحاول أن يتنفس ورفع رأسه قليلاً فكأنما رأى امرأة، ثم دُفِع مرة أخرى إلى داخل الماء حتى كاد أن يفقد الأمل، ثم سمع صوتًا أنثويًا كأنه هو صوت تلك المرأة تقول له «تذكر.... تذكر» فرفع رأسه دافعًا نفسه إلى خارج الماء كي يتملك أنفاسه وليتأكد ممن يريد إغراقه، وكأنها هي المرأة من تحاول إغراقه ثم دُفِع مرة أخرى داخل الماء وهو يسمع تكرار نفس الكلمات بصوت المرأة تأمره بالتذكر، ثم فقد الأمل بأن يخرج حيًا سليمًا من هذه الواقعة فيقول داخل نفسه وهو يظن أنه غارقًا لا محالة ماذا أتذكر؟ ماذا أتذكر؟ حتى تسلطت المياه إلى شهيقه قائلاً ماذا أتذكر؟ ثم صرخ النجدة، ففتح عينيه ووجد نفسه على فراشه داخل بيته وقد أيقظت صرخته زوجته النائمة بجواره فأدركت بأن زوجها قد رأى في منامه حلمًا سيئًا فهرعت إلى وعاء الماء جالبة إليه قدحًا منه ليشرب وهو يتصبب عرقًا فقالت مطمئنة له: أنت بخير إنه مجرد حلم اهدأ ولا تفزع.

فارتشف رشفات من الماء الذي جلبته له زوجته «إيشاهات» ثم قال لها: لقد رأيت حلمًا غريبًا، وكان الأمر كأنه حقيقة.

فاستفسرت منه عما رأى فحكى لها ما رأى في منامه وقص عليها

مـا فعلتـه تلـك المـرأة قائـلاً لهـا: لقـد حاولـت إغراقـي أو أرادت تغطيـسي في المـاء عـلى أقـل تقديـر! وعزمـت عـلى ذلـك وكانـت تأمـرني بالتذكـر حتى صرخـت مفزوعًـا، ثـم اسـتدرك في قولـه موضحًـا لزوجتـه: ولكنـي أحـس عـن يقـين بأننـي قـد رأيـت تلـك المـرأة مـن قبـل ولكنـي لا أتذكرهـا بشـكل جيـد ولا أعلـم أيـن ولا متـى رأيتهـا مـن قبـل ولكنـي أتذكـر ملامحهـا جيدًا.

فقالـت لـه زوجتـه: إنـه مجـرد حلـم سيء لا تشـغل بالـك وعـد إلى النـوم.

وفي ليلـة أخـرى رأى «تـوران» نفسـه في المنـام خارجًـا بجـوار النهـر وكان هنـاك كـوخ صغـير لم يـره مـن قبـل في هـذا المـكان وكأن هنـاك مـن يسـكنه ولكنـه لا يعلـم بأحـد مـن سـاكنيه، فذهـب إلى حيث الأشـجار ذات الثـمار ثـم بـدأ بالتجـرد مـن ثيابـه ناويًـا النـزول إلى مـاء النهـر للاسـتحمام وفي أثنـاء تجـرده مـن ثيابـه شـعر بـأن هنـاك مـن يراقبـه ثـم اسـتكمل ذلك بالنـزول إلى النهـر وهـو يشـعر بأنـه يوجـد مـن يتتبعـه ولكنـه لم يتأكـد من ذلـك حتـى إذا وصـل مـاء النهـر حتـى أنفـه أحـس بيديـن تسـحبانه إلى عمـق النهـر وهـو يحـاول أن ينجـو بنفسـه مـن الغـرق وهـا هـو يحـاول بـكل قوتـه حتـى أفلتـت اليـدان قدميـه وخـرج إلى الشـاطئ وهـو يلهـث ويسـحب جسـده بانحنـاءة فـإذا بـه يجـد تلـك المـرأة التـي رآهـا مـن قبـل تدعـوه لـكي يتذكـر شـيئًا مـا واقفـة أمامـه، فقـال لهـا وأنفاسـه تتلاحـق متسـارعة: أنـا أتذكـرك لقـد رأيتـك مـن قبـل.

فردت عليه: الآن ستتذكر.

ثم قالت له المرأة: اتبعني إلى ذلك الكوخ في كل ليلة يكون القمر فيها محاقًا، فإذا فعلت ستبدأ في تذكر كل شيء.

استيقظ توران من نومه وكانت زوجته نائمة بجواره فهب واقفًا واتجه نحو الباب وفتحه بكلتا يديه وخرج من بيته ثم نظر إلى السماء في تلك الليلة الظلماء ليرى أثر القمر فيها محاقًا معتمًا.

ثم بدأ في تذكر تفاصيل ما رأى في منامه وتذكر تفاصيل ملامح وجه تلك المرأة وما رأى من قبل في منامه وبدأت تغزل الأفكار في ذهنه معاني كثيرة.

تنهد «توران» ونظر نظرة أخرى إلى السماء ثم وجه بصره إلى القمر وهو معتم مرة أخرى ثم استدار عائدًا إلى داخل بيته فأخذ فأسه بيمناه وعزم على الخروج إلى حيث ذلك المكان الذي رآه في منامه وأغلق باب بيته وتوجه إلى ضفة النهر سائرًا على قدميه ولما اقترب إلى الأشجار تنفس بعمق وتمنى لو رأى ذلك الكوخ كما رآه في منامه ثم دنا إلى حيث مكان الكوخ فلم يجده في مكانه، فوقف صامتًا برهة من الزمن وقال في سره: كنت أرجو ألا يكون هناك ما يعبث بعقلي، ليس كل ما يُرى في المنام حقيقي، إنها مجرد أوهام فحسب.

ثم عاد إلى بيته واضعًا فأسه على كتفه وبعد أن مشى خطوات قليلة فإذا به فجأة يرى كأن نارًا تخر من السماء ضُرِبَ بها جانب الأشجار من الضفة الأخرى للنهر وأشعلت حريقًا بعدد من الشجيرات أضاءت ذلك الجانب من النهر.

فقال في سريرته: إنه شهاب.. مجرد شهاب ساطع.

ثم عزم على الرجوع إلى بيته، لكنه سمع من طرف بعيد من الوادي صوت الذئاب وهي تعوي، فأحس بالخوف واستمسك فأسه بقبضة قوية وتملكه بيده جيدًا وهو ما زال عائدًا إلى بيته يتحسس خطواته جيدًا في تلك الليلة حالكة السواد حتى مر على قوارب الصيد فأقدم على عبور النهر ليذهب إلى الضفة الأخرى ليأتي بقبسٍ من تلك النار المشتعلة التي ضربت الأشجار في الجانب الآخر من النهر.

ولما عبر متجهًا إلى مقصده رأى كأنه هو نفس المكان الذي سار فيه منذ قليل، إنها نفس الأشجار المثمرة.. عواء الذئاب.. ونفس آثار خطواته على الطريق فيقول في نفسه: لقد مررت بهذا المكان منذ قليل، مستحيل فإني قد عبرت النهر إلى الضفة الأخرى. لعل الخوف من الذئاب قد تملكني وكيف أسير وأنا مشوش الذهن! هذا هو نفس المكان الذي رأيت فيه النار تخر من السماء ولكن لا أثر لهذه النيران ولا الحريق الذي شب هنا.

ثم فجأة و»توران» يمشي الهرولة أبصر شيئًا وكأنه كوخ في مكان قريب فيقول: كوخ لعل به أحد يساعدني.

ثم اقترب أكثر فأكثر فالتمعت عيناه ذهولاً وقال بصوت مرتفع: إنه الكوخ الذي رأيته في منامي من قبل، أهذا صحيح؟ أيعقل هذا الذي يحدث؟

واقترب أكثر وبدت عليه علامات الاستغراب والدهشة، وعندما

اقترب من محيط الكوخ أخذ يتروى في خطواته لتكون قصيرة وقليلة لأجل أن يتفحص المكان، حتى إذا وصل مد يده ليتأكد من وجود الكوخ ذاته ويتحسسه فإذا هذا الكوخ يبدي له واقعًا ملموسًا، إلى أن وصل إلى مدخله وكان متحفظًا مترددًا أيدخل هذا الكوخ أم يعود أدراجه، ولكنه فضل أن ينادي ويسأل عن ساكنيه.

فنادى قائلاً: «أهناك أحد هنا؟ أيوجد ساكن لهذا الكوخ؟»

فنادى وسأل ولم يجبه أحد فكرر هذا الفعل مرة أخرى ولكن بصوت أعلى فلم يجبه أحد أيضًا، ثم تجرأ على الدلوف عبر مدخل الكوخ، فوجد ما جعله أكثر ذهولاً وارتباكًا، لقد نظر إلى وجه فوجده إذ هو وجه تلك المرأة التي كان يراها في رؤى منامه ولكنها مبتسمة إليه قائلة له: لقد كنت أنتظر ميقات هذا اللقاء منذ زمن طويل!

هي امرأة بالغة الجمال ذات عينين واسعتين خضراوين ولون بشرتها كسحابة بيضاء نظرت إليه بعينيها الساحرتين فجعلته كالمغشي عليه من أثر تلك النظرة ولكنه تمالك نفسه سائلاً إياها: من أنتِ؟

فردت: لن تتذكر الأمر برمته الآن ولكن ستتذكر شيئًا فشيئًا، لقد هبطت إليك لأني عاهدت نفسي بألا أنساك وألا أتركك أبدًا.

فسألها «توران»: أمن أهل الأرض أنتِ أم من أهل السماء؟

فأجابته قائلة: بل أنا وأنت من أهل السماء!

فأصابته الحيرة والدهشة من قولها هذا فقال لها نافيًا قولها:

أنـتِ مجـرد جنيـة تريديـن إغـوائي لا أكـثر.

فقالـت لـه: لا تـسيء الظـن بي أبـدًا، واسـتمع إلى كل مـا أنصحـك بـه وجـل مـا أريـدك أن تعيـه بـأن مسـألة تذكـرك لماضيـك سـتكون بطيئـة بعـض الـشيء، ولـكي تتذكـر عليـك أولاً باتبـاع نصيحتـي الأولى لـك.

فقال لها مستفسرًا: وما هي؟

فأردفـت متابعـة لنصيحتهـا: لا تجعـل مـردوخ ومـن معـه أربابًـا لـك بعـد الآن، هـذا كل مـا أريـده منـك مـن الحـين وإلى الأبـد.

قال توران: وإن لم أفعل؟

فقالـت لـه: بـل سـتفعل لأنـك لـن تعـق نصائحـي ولـن تسـتهزئ بهـا ولـن تغفـل لي حديثًـا أبـدًا.

ثـم تابعـت بقولهـا: اذهـب إلى بيتـك فقـد اقـترب زوال الليـل لـشروق الشـمس وإنّـا لنـا موعـدًا آخـر الشـهر القـادم.

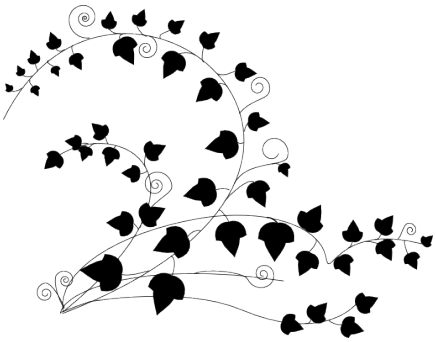

حجر صغير يسند الصخرة الكبيرة

مر يومٌ آخر وكان يومًا عصيبًا، إذ جاء توران إلى بيته وزوجته يوم أمس وهو يتصبب منه العرق بشدة وأخذ يتكلم بسرعة فظنت امرأته بأنه يهذي ثم نام متعبًا وفي صباح هذا اليوم استيقظ توران من سباته وأدركته امرأته بالفطور فشرب وطعم ثم بدأ يروي لها ما حدث له الليلة السابقة فبدت على زوجته علامات الاستغراب من حديثه لها ولم تعطه الإحساس بصدق كلامه فنصحته بالذهاب إلى حكيم عجوز يسكن في المدينة على أن يستشيره ويطلب مساعدته على أساس أنه قد مسه الشر، فبات يومه في بيته ولما قدم عليه يوم جديد عزم على الذهاب إلى المدينة ليلتقي بذلك الحكيم العجوز وليطلب منه تفسيرًا لما حدث له وشد رحاله إلى المدينة ساعيًا.

ولما حضر المكان حيث ذلك الحكيم فرآه جالسًا القرفصاء تأتيه النساء والرجال كل له حاجته حتى إذا فرغ تقدم إليه «توران» ليقص عليه روايته، وكان الحكيم رجلاً مسنًا فاقدًا للبصر عينيه بيضاوين لا يرى فيهما لون آخر.

فبدأ «توران» في سرد قصته متسلسلاً منذ أن رأى تلك المرأة أول مرة في أحلامه ورؤيته لها في الحقيقة كما رآها في منامه وحتى أن كلمته وصارحته ووعدته برؤيته لها في لقاء آخر مرة أخرى الشهر

المقبل وحدثه خاصة عندما طلبت منه تلك المرأة عدم اتخاذ «مردوخ» ومن معه أربابًا له بعد الآن، فقاطعه العجوز وسأله قائلاً: أكان لتلك المرأة زيًا غريبًا عن زي أهل هذا الزمان؟

فأجابه توران: بلى، ولكن لم يشد ذلك الأمر انتباهي.

فابتلع العجوز ريقه وقال مخبرًا: تلك المرأة ليست من أهل الأرض إنما هي من أهل السماء.

فسأله توران: أهي شرٌ عليَّ؟

فرد عليه: كلا إنها روح علوية وليست روحًا سفلية شريرة.

ثم سأله توران: أيأكلون ويشربون مثلنا؟

فأجابه: إنهم لا يأكلون مما نأكل ولا يشربون كذلك ولكن غذائهم هو الرحيق.

فقال توران: وهل سبق أن قابل إنسيٌ أحدًا منهم؟

فرد عليه: إنهم يأتون فرادى وجماعات يقابلون بعض الأشخاص يحدثونهم أو يهمسون إليهم ولكن الحادث الأغلب أنهم يهمسون إليهم.

ثم استفسر منه توران: وفي أي شأن كانوا يحدثون أو يهمسون؟

فرد عليه: كثيرٌ منهم يأمرون باتباع «مردوخ» في حديثهم وهمسهم هذا، ولكن هذه هي أول مرة يحدث فيها أن يأمر أحدهم بعدم اتباع مردوخ، ثم أسرّ له حديثًا قائلاً له: إن رأيتها مرة أخرى أبلغني بما حدث.

ثم طلب توران من العجوز أن يحدثه عن ماهية أهل السماء فسأله: كيف يقابل الإنسي كائنًا أيًا كان من أهل السماء ويخاطبهم ويتفاعلون معه وهم ليسوا على مادتهم ولا طبيعتهم؟

فرد عليه العجوز: هذا جائز وقد حدث مرارًا ولقد أتتنا أخبار كثيرة عن ذلك.

ثم تتطرق توران إلى حديث آخر مع العجوز الحكيم فسأله عن حقيقة مردوخ والآلهة كيف بدأت؟

فبدأ العجوز في سرد هذه القصة إليه: في البداية كان كل شيء مظلمًا ولم يوجد أي مخلوق ولم يكن لهذا العالم وجود ولا أي عالم غيره لا شيء سوى الماء وكانت تسمى «نمو» وهي التي انبثق عنها كل شيء. أنجبت نمو ولدًا وبنتًا؛ الولد هو «آن» إله السماء المذكر والثانية هي «كي» إلهة الأرض المؤنثة، وكانا تابعين لأمهما «نمو» لا ينفصلان عنها ثم تزوج «آن» من «كي» وأنجبا «آنليل» وهو إله الهواء والضباب الذي كان بين السماء والأرض وهي مساحة ضيقة لم يكن يستطيع التحرك فيها فلم يطق ذلك فقام بقوة وبفطرة كفطرة الأطفال بفصل أبويه عن بعضهما لاهيًا فصارت السماء كما نعلم علوها والأرض كما نعلم دنوها، ولكن ما زال الظلام الحالك سائدًا فأوقد «آنليل» النار فسطعت الشمس وقد فعل هذا كما يلعب الصبيان.

فقال له «توران»: نعم إني تعلمت ذلك عندما كنت أخدم في معبد الآلهة الكبرى، ثم سأله توران سؤالين مُلحين قائلاً: ولكنك لم

تذكر لي «مردوخ» فأين كان وماذا خلق؟ ولماذا مردوخ هو كبير الآلهة وليس آنليل؟

فأجابه الكاهن: سأخبرك قولاً لم أذكره لأحد من قبل إلا نادرًا، فعدل جلسته ثم تابع حديثه فقال: حينما كان كل شيء مظلمًا كانت الزواحف هي أسياد هذا العالم وكانت هذه الزواحف عملاقة الحجم لا ترى بعينيها كما نرى نحن بنو البشر ولا تبصر كما نبصر؛ فبعضهم كانوا يتحسسون حرارة الأجسام باستخدام حاستي الشم واللمس أو يرون فقط حرارة الأجسام المتحركة كالأفاعي وكان يرسل بعضهم إشارات كموج البحر فإذا ارتطمت بجسم متحرك ارتدت إليهم فيعلمون بوجود كائن حي موجود في حدود هذا المكان كالخفافيش. لقد كان عالم ظلامي ظلامه دامس ولم يكن بإمكان تلك الكائنات أن ترى الشمس وآثارها كالقمر والنجوم والكواكب ولم يكن بالإمكان رؤية السحب في السماء، فلما سطعت الشمس وكان ضوؤها واضحًا ظهر القمر وظهرت النجوم والكواكب القريبة منا وخبت آية الظلام في النهار فابيضت السحب ولم يكن ليرى هذا أحد من الزواحف لأن خلقتها الظلامية لا تمكنها من ذلك ولم يستثنى من ذلك إلا بعض من المسوخ الصغيرة الحجم لهم أعين كأحداق الهررة ولهم أثداء ولا يبيضون ولا يفقسون كباقي الكائنات، وكان من بينهم مردوخ وهو أعقلهم إذ كانت تحبس روحه التي بداخله النور الساطع الخارج من باقي الكائنات وكانت له القدرة كذلك على حبس أرواحهم حتى إذا فنت مادتهم وفنت هو أيضًا مادته صعد إلى السماء ولم يكن

بهـا عاقـل فنصـب نفسـه إلهًـا، فـكان نوعًـا مـن الـصراع صراع بـين العقـل والقـدر. وهكـذا، ظهـر العـالم الـذي نحيـا فيـه وأصبـح مـردوخ متحكـمًا في مصـير الخلائـق جميعًـا وظهـرت الخيـل وباقـي الثدييـات وكثـير مـن الطيـور كـما نعرفهـا نحـن الآن.

فسـأله تـوران عـن سـكان الأرض مـن الزواحـف فأخـبره العجـوز الحكيـم بـأن «مـردوخ» أهلـك الزواحـف الكبـير منهـا مهلـكًا واحـدًا لأنهـا كانـت تفـترس تلـك المخلوقـات الصغـيرة الضعيفـة وليظهـر جنـس جديـد يسـود هـذا العـالم جنـس مـن النـوع الـذي يمكنـه بـأن يكـون هـو سـيدًا لهـم وربًـا عليهـم وهـو جنـس البـشر.

ثـم قـام تـوران مندهشًـا مـن قـول العجـوز وشـكره قائـلاً لـه: لقـد أنـرت بصـيرتي شـكرًا لـك.

ثـم تركـه وقـد أثـرت كلماتـه وحديثـه فيـه تأثـيرًا كبـيرًا وذهـب عازمًـا عـلى العـودة إلى مقصـده إلى حيـث يصـير القمـر محاقًـا إلى ذلـك الكـوخ الصغـير.

****

بـدأ تـوران في رحلـة مجيئـه إلى قريتـه التـي يسـكن فيهـا وهـو يجيـش في صـدره الكثـير مـن الأفـكار، التـي لا تـكاد إلا أن تذهـب بعقلـه حتـى وإن بـدا متماسـكًا وكان يحـدق بالنـاس الذيـن يلاقيهـم في طريقـه وهـم غربـاء عنـه فـكان يراهـم وهـو شـارد الذهـن كالأشـباح، تجـئ فكـرة تذهـب بأخـرى ولم يحـد لهـا حـدًا فاصـلاً أو يبـت فيهـا أمـرًا قاطعًـا أو

يحـدد لنفسـه بشـأنها سـبيلاً. فهـل مـا يحـدث لـه أمـرًا صحيحًـا ظاهـرًا وباطنًـا وهـو حـقٌ واقـع أم أنـه قـد ظهـر لـه مـا سـيذهب بعقلـه ويخبلـه، أيتـمادى في التفكـير والتركيـز الشـديدين في وضـع قـرار فاصـل لهـذا الأمـر أم يـترك الزمـن يقـوم بـدوره ويلهيـه بالأحـداث المتواليـة فينسـاه إلى الأبـد، أيعـاود بزيـارة ذلـك الكـوخ لرؤيـة تلـك المـرأة أم يهمـل أمرهـا بعـد أن علـم حقيقـة «مـردوخ» كبـير الآلهـة مـن ذلـك الحكيـم العجـوز ونصيحـة تلـك المـرأة لـه بعـدم اتخـاذه ربًـا لـه بعـد الآن؟ ومـا السـر الـذي تخفيـه الأيـام عـن تـوران ومـا معنـي مـا عـبرت بـه تلـك المـرأة عـن كونهـا مـن أهـل السـماء وأن تـوران مثلهـا كذلـك ومـا مـدى صحـة هـذا الـكلام أهـي تعبـث بعقلـه؟ أم أن هنـاك أمـرًا ينسـاه تـوران بالفعـل ويغفلـه؟ ثـم اهتـدى إلى أن يقـوم بزيـارة صديقـه «نُصـير» فعـدل وغـير مسـاره ذاهبًـا إليـه في أقـصى المدينـة سـاعيًا حيـث يسـكن بجـوار معبـد الآلهـة الكُـبَر.

إن «نصـير» هـو صديـق تـوران الوحيـد الـذي قـضى معـه معظـم فـترات حياتـه بـدءًا مـن طفولتـه وفتوتـه وريعـان شـبابه. ذهـب إلى مسـكنه فلـم يجـده فسـأل عـن مكانـه فأخـبروه عمـن يدلـه عليـه فدلـه الـدال عـلى المعبـد فعمـد إليـه ووجـده يـؤدي الصلـوات داخـل المعبـد. ويبـدو هـذا المعبـد عظيـم الأركان ذو أعمـدة صخريـة عاليـة عددهـا اثنـي عـشر عمـودًا وطولهـا حـوالي أربعـون ذراعًـا، بـين كل عمـودٍ وآخـر يوجـد تمثـال ضخـم لإلـه مـن الآلهـة جميعهـم في وضـع الوقـوف الثابـت وعددهـم عـشر تماثيـل يتوسـطهم تمثـال أضخـم مـن جميـع التماثيـل في وضـع الجلـوس يمسـك بيـده اليمنـى عصـا كبـيرة وغليظـة وهـو تمثـال لكبير

الآلهـة «مـردوخ» وأمـام هـذا التمثـال يوجـد مذبـح تقـام عليـه الصلـوات وتقـدم فيـه القرابـين وعـلى كل ركـن مـن أركان المعبـد الأربعـة توجـد نـيران مضرمـة مقدسـة لأجـل الآلهـة وكبيرهـم.

ورأى تـوران صديقـه نصـير وهـو يقـوم بـأداء الصلـوات ومعـه جمـعٌ غفـير مـن النـاس فلـم يشـاركهم في هـذا الفعـل كـما كان يفعـل في المـاضي وانتظـر حتـى يفـرغ الجميـع مـن صلواتهـم ثـم بـدأ يفكـر في سـبب هـذا الامتنـاع عـن أداء الصلـوات التـي كان يقـوم بمثلهـا مـن قبـل قائـلا فى سريرتـه: مابـك ياتـوران؟ مالـك لاتـؤد الصـلاة كـما إعتدتهـا أهـي نصيحـة المـرأة التـي قابلتهـا أنفذهـا بـإرادتى أم أن تلـك المـرأة قـد سـحرتنى لأكـون عـلى كامـل إرادتهـا ، لكنـه في الواقـع كان يشـعر بـشيء مـا في داخلـه ينهـره عـن إتيـان تلـك العبـادة لم يجـد لـه سـببًا واضحًـا، حتـى إذا انتهـت تلـك الصلـوات وانتهـى الجمـع الحضـور عـن ذكرهـم للآلهـة وقـد أدوا جميـع الطقـوس ونالـوا الـبركات مـن الآلهـة والكهنـة واتخـذوا تحصيناتهـم ضـد الأرواح الشريـرة، قابـل تـوران صديقـه فـرآه ثـم أقبـل وسـلم عليـه واسـتقبله صديقـه اسـتقبالاً حـارًا ودعـاه بعـد ذلـك إلى تنـاول الغـداء معـه في داره وسـارا معًـا يتبـادلان الحديـث عـن أخبارهـما وعـن أحوالهـما في فـترة غيابهـما عـن بعضهـم البعـض حتـى وصـلا إلى داره وكان دارًا واسـعًا يقيـم فيـه «نصـير» وعائلتـه بأكملهـا. فقـد تـزوج نصـير ورزق بخمسـة أولاد وثـلاث بنـات وكان قـد سـمى أحدهـم «تـوران» عـلى اسـم صديقـه العزيـز وهـو اسـم غـير منتـشر في تلـك القـرى مـن أرض شـنعار، ويعمـل نصـير في التجـارة بجانـب خدمتـه في معبـد الآلهـة الكـبر. ثـم اسـتكملا

حديثهما وحكى له توران ما قد دار وحدث معه وكان صديقه مهتمًا بحديثه وبدا مشغولاً بحال صديقه وبعمق أمره وبأثر ذلك عليه ثم تنبه إليه في حواره معه سائلاً إياه: أحدث أي تغيير يعكس شيئًا سلبيًا في قدرتك على التحكم في أعصابك وانفعالاتك؟

فأجابه بالنفي: كلا. ثم سأله: أتعاني من أية آلام أو أوجاع في جسدك؟

فأجابه أيضًا بالنفي، فاطمئن نصير في سريرته، وطمأنه بأنه مجرد حادث عارض، ثم أبدى نصيحته لصديقه قائلاً:

أشير عليك بألا تكلف نفسك فوق طاقتها بتذكر ذلك الموضوع أو حتى التفكير فيه.

ثم جاء خاطرٌ على توران قد جال في نفسه وهو في المعبد، إذ كان يقوم في غير مواسم الزراعة بالخدمة في المعبد قبل هذا الحين وهو عمل لا يهدف إلى الربح بطبيعة الحال ولكنه يحمل معنى ديني لدى أوساط المجتمع، فاتخذ قرارًا بشأنه وقال لصديقه: إني أفصح لك عن رغبتي في ترك الخدمة في معبد الأرباب بعد هذه اللحظة.

فرد عليه صديقه: لما اتخذت هذا القرار؟

فقال له: حتى لا أشغل نفسي بكثرة الأعمال ولبعد المسافة بين قريتي والمدينة.

ثم سأله نصير: هل له علاقة بما حكيته لي منذ قليل؟

فرد عليه: كلا، إنما جاء مصادفة.

فرد عليه: لك كامل الحرية فيما تختار.

ثم تطرق حديثهما إلى تلك الغارة الهمجية التي كانت على قرية توران وما أصابه من خسارة في أمواله وما تعرض له البعض من أهل قريته من أذى , حتى أقبل عليهم من يحمل إليهما طعام الغداء من لحم وثريد فأكلا واستمرا في الحديث إلى أن حل الليل. وفي أثناء حديثهما بعد تناول الطعام شعر توران بألم في أسفل ظهره وآخر في بطنه لكنه تغاضى عن ذكره لصديقه لكن هذا الألم بدأ يزداد تدريجيًا وكان يتعرق بشدة لكنه تمالك نفسه حتى تنبه نصير إليه سائلاً عما إذا كان يعاني من شيء فأنكر ولم يبدِ هذه الآلام لصديقه حتى خف أثرها عليه، ثم عزم توران على الرحيل مودعًا صديقه متفائلين بلقاء آخر عن قريب، فتركه في سلام وذهب إلى القرية وهو يسأل نفسه عن سبب هذه الأوجاع التي آلمته في بطنه وأسفل ظهره لكنه لم يجد إجابة. ورغم كثرة الصعاب التي لاقاها في سفره ومن قبل في الأحداث التي وقعت له لكنه كان يكن في نفسه التفاؤل وكان حالمًا بذهاب كل هم أو ألم وآملاً بحسن سير الأمور إلى حين عودته إلى بيته مترقبًا لما سيحدث بعد ذلك.

توران يتذكر مردوخ

وعـاد تـوران إلى قريتـه وعندمـا أشرف عـلى القبـول إلى حيـث مسـكنه كانـت تـدور في ذهنـه آثـار مـن أصـوات الترانيـم التـي سـمعها تتـلى داخـل معبـد الآلهـة في وقـت انتظـاره لصديقـه نصـير حتى يفـرغ مـن أداء صلواته هـو ونفـر مـن أهـل المدينـة، ودخـل بيتـه ووجـد امرأتـه «إيشـاهات» في انتظـاره وقـد سـعدت كثـيرًا بعودتـه ورحبـت بقدومـه ترحيـب الزوجـة المخلصـة حيـث إنهـا قـد أعـدت لـه مـا يحـب مـن طعـام وشراب، وعندمـا سـكن وبلـغ راحتـه سـألته عـما حـدث معـه في يومـه هـذا فأجابهـا وأبلغهـا بزيارتـه لصديقـه «نُصـير» وعـن مـدى ترحيبـه بـه فـكان ترحيبًـا كريمًـا مـن صديـق وفيً إلى صديقـه، وعندمـا سرد تـوران قصتـه مـع ذلـك العجـوز الحكيـم كان لهـذا الحديـث بالـغ الأثـر في نفـس الزوجـة فقالـت لزوجهـا وهـي مندهشـة:

أيعقل أن تكون هذه هي حقيقة «مردوخ» كبير الآلهة؟

فـرد عليهـا: هـذا هـو القـول الـذي سـمعته بـأذني، ولا أكذبـك فيـه كلمـة واحـدة.

فقالـت نافيـة لصحـة هـذا الحديـث: كلا، هـذا غـير صحيـح. إن هـذا الرجـل هـو مجـرد عجـوز خَـرِف.

فقال لها: ولما لا يكون كلامه صحيحًا، خاصة أن «آنليل» ليس من بين الآلهة الكبر في معبد الآلهة وأنه للأولى أن يكون «آنليل» هو كبير الآلهة وليس «مردوخ».

فقالت الزوجة: هذا ما قد باح به ذلك العجوز لكنه ليس لديه من دليل على قوله، ولا يثبت قوله إلا بخبر يقين.

فرد توران قائلاً: بلى، هذا صحيح إن ادعاء ذلك العجوز على «مردوخ» ليس عليه دليل ويعتريه الشك وقد يتجنبه الصواب. فاستكملت إيشاهات كلامها قائلة: نعم هو ذلك لأنه أمر غيبي لم يذكر من قبل، فهو قول معرض للشك.

ثم قال لها: لكن في قول العجوز هذا ما يميل إليه قلبي.

فقالت له: وما هو؟

فقال لها: إن طبيعة الحياة في هذا العالم لا تسير على وتيرة واحدة فاختلاف أنواع المخلوقات وصراعها مع بعضها البعض إنما يدل على مراحل مر بها هذا العالم أدت إلى هذا الاختلاف ونشب بسببها هذا الصراع بين كل نوع.

فسألته قائلة: أتقصد بتلك المراحل اختلاف آيات الليل والنهار؟

فرد عليها: نعم فهناك أنواع من المخلوقات لا تحيا إلا في ظلام وهي متكيفة على ذلك وهو ما يدل على أن ارتباطها بالظلام هو ارتباط وجودي فلو اختفى الظلام اختفت هي بدورها وهي أقدم

مـن باقـي المخلوقـات عـلى سـطح الأرض قِـدَم الظـلام في هـذا الكـون حينـما كانـت آيـة النهـار غـير مبـصرة لعـدم سـطوع الشـمس حينهـا، وحينـما سـطعت الشـمس ظهـرت الكائنـات المرتبطـة بهـذه الآيـة ارتباطـًا وجوديًـا وبقيـت الكائنـات الظلاميـة تحيـا ليـلاً دليـل عـلى المـاضي القديـم. وهنـاك أنـواع مـن المخلوقـات لا تحيـا إلا في عمـق الميـاه وهـي تـدل عـلى وجـود أقـدم لآيـة أسـبق حينـما كان لا شيء موجـود سـوى المـاء والكائنـات المرتبطـة بهـذه الآيـة ارتباطـًا وجوديًـا وهـي الكائنـات البحريـة.

****

وجـاء يـومٌ جديـد عـزم تـوران فيـه عـلى التوجـه لمراقبـة ثمـار النخيـل لـيرى مـدى نضوجهـا فهـو يقـوم بصناعـة نبيـذ التمـر فوجـد الثـمار قـد قاربـت عـلى النضـوج، فتوجـه بعدهـا إلى شـجيرات تزهـر الياسـمين وصنـع عقـدًا مـن الياسـمين ليهديـه إلى زوجتـه المحبوبـة ثـم عـاد إلى بيتـه فوجدهـا قـد أعـدت للعشـاء خبيـزًا وحلبـت العنـزة التـي يمتلكانهـا وقربـت إليـه الطعـام والـشراب فأهـدى هديتـه إلى زوجتـه فسـعدت بهـا وطوقـت بهـا عنقهـا وارتـدت لزوجهـا ثيابًـا ذات أطـرافٍ قصـيرة وبعـد أن أنهـى طعامـه وشرابـه اقتربـت منـه فنظـر إليهـا وثيابهـا وعلـق معجبًـا بمـا ترتديـه فضحكـت ثـم اقتربـت إليـه قليـلاً ومالـت برأسـها نحـو صـدره ووضعـت يدهـا عـلى كتفـه وسـألته عن مـدى اشـتياقه إليهـا، فتنهـد ووضع يـده عـلى رأسـها مداعبًـا لخصـلات مـن شـعرها وأجابهـا باشـتياقه إليهـا فرفعـت رأسـها نحـوه واقـترب هـو بـدوره أكـثر تجاههـا وقبلهـا فاسـتدارت

إليه وسألته عن رغبته فعطف عليها وهو يقبلها وأجابها بالإيجاب فنهضت فجأة وذهبت مسرعة تاركة إياه وهو متعجب من فعلها هذا وأحضرت أعشابًا ممزوجة ببعض الزيوت قد أتت بها من حكيم القرية وذلك لعلاج العقم، عندما رأى توران ما أحضرته له زوجته بدا متجهمًا مستنكرًا فعلها ووبخها وقال لها: ألم أحدثك في هذا الأمر من قبل مرارًا بأن تنسيه، لقد قمنا بتجربة الكثير من الأدوية وكثير من الخلطات والأعشاب ولم تأت بفائدة ولم تحدث نتيجة فاعلة.

فحزنت إيشاهات وقالت له: وما المانع من تكرار الدواء، ألا تريد أن تصبح أبًا وأنا أمًا؟

فرد عليها منفعلاً: لا أريد أن أصبح أبًا. انسي هذا الأمر إلى الأبد، لقد أفسدت بأفعالك هذه حميمية لقائنا وعاطفة زواجنا لأجل هذا الأمر وأنت تعلمين تمام العلم مدى يأسي من حدوثه ولكنك ما زلت متمسكة به.

فنظرت إليه باكية وهي صامتة، وقضيا يومهما حزينين يتألمان ولم يكلم أحدهما الآخر طوال اليوم والليلة حتى أغمض كل منهما عينيه في سكون ثم بدأت أصوات الترانيم والتلاوات العودة إلى ذهن توران وهو ناعس فهي تتردد في مخيلته خاصة ذلك النداء إلى «مردوخ» كبير الآلهة بقول الكاهن في المعبد وهو يتلو:

(أيها الإله الأعظم رب الحديد والنحاس رب الأرباب وكبيرهم ليتقدس اسمك الخفي ولتوقد نارك في كل وادٍ وسهلٍ وجبل، ولتنمو

الأشـجار والـزروع في كل حقـلٍ بمائـك وبركتـك وليُقهـر أعدائـك بنظـرك إليهـم ولتحـترق أفئدتهـم برعـد ملكوتـك وبإشـارة مـن عصـاك. إنـك قـادر عـلى كل شيء ليتقـدس اسـمك الإلـه مـردوخ الجبـار).

كانـت تلـك الكلـمات مـا زالـت تـتردد في ذهـن تـوران حتـى أدركـه النـوم تمامًـا وانتـصر عليـه وعـلى يقظتـه بسـلطانه القـوي.

ثـم فـزع في تلـك الليلـة ونهـض مـن نومـه كأن ثقـلاً عـلى صـدره وغرقًـا عـلى وجهـه وأنفـه قـد كتمـت أنفاسـه فـشرب القليـل مـن المـاء ورشـف منه رشـفات متتاليـة ثـم وضـع الوعـاء إلى جـواره حيـث كان ثـم نظـر إلى زوجتـه فوجدهـا مسـتغرقة في النـوم بجـواره. حـاول أن يتذكـر مـا رأى في منامـه فتذكـر أنـه رأى نفسـه كأنـه في معبـد الآلهـة الكـبر وتماثيـل الآلهـة عـلى أركانـه ثـم نظـر إلى تمثـال كبيرهـم وهـو جالـس عـلى كرسـيه وبيـده اليمنـى عصـاه وأمعـن النظـر إلى وجهـه واشـتد تركيـزه بالنظـر إلى عينيـه فـإذا هـو يـرى التماعًـا شـديدًا في عينـي التمثـال وحـدث كأن الـبرق ضرب جوانـب المعبـد فأضـاءت إضـاءة شـديدة ثـم رأى وجهًـا موجِهًـا بـصره إليـه بحركـة واحـدة مـن القزحيـة ناظـرًا بعينـين لا تتحـركان ولا يغمـض لهـما طـرف وطالـت النظـرة إليـه وكانـت كنظـرة السـباع وهـي تحـدق إلى فرائسـها مـن وراء الشـجيرات أو عندمـا تـذود عـن عرائنهـا وأطـال النظـر إليـه في عينيـه فالتبسـه الرعـب وبـرزت الهيبـة والرهبـة وظهـرت لديـه الرغبـة في الفـرار مـن ذلـك الموقـف، فلـم يقـدر عـلى الاحتـمال واشـتدت عليـه الرهبـة والخـوف كأنمـا يخـر مـن السـماء حتـى قـام مفزوعًـا مـن منامـه.

فعلم توران وباقية الخوف في نفسه والثقل ما زال على صدره أنه قد نال نصيبه من غضب «مردوخ» الذي رأى وجهه في منامه وأنه مقبل على الآلام والأوجاع التي لم يتعرض لها من قبل في الفترة المقبلة من حياته، ثم فرك عينيه وكان يشعر كأن بهما قَذاة أو ذرات من تراب.

ثم بدأ يتذكر ملامح وجه «مردوخ» رويدًا رويدًا حتى بدأت مخيلته ترسم ملامح وجهه إلى أن اكتملت صورته في عقله وقال في سريرته:

كأني رأيت هذا الوجه من قبل إنه على غير ما يصوره نحاتو التماثيل لكبير الآلهة، ذلك الوجه العريض والحاجبين الثقيلين واللحية العظيمة والأنف المستقيم والشعر الكثيف والعينين الواسعتين اللاهبتين اللتين يومضهما البرق والغضب، هذه الملامح ليست لوجه لا أعرفه أنا متأكد من ذلك.

****

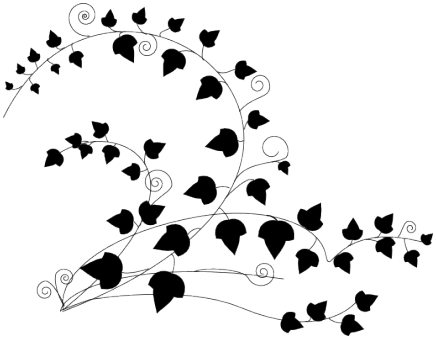

لقد سحرتني تلك المرأة

استيقظ توران عصر اليوم التالي وهو يبدو متعبًا غير نشيط فقام من مكانه يخطو خطوات بطيئة نحو الخارج متجهًا إلى حيث توجد زوجته في مكانها المعتاد كل يوم فلم يجدها فنادى عليها ولم يتلق إجابة فبحث عنها في الدار فلم يجدها فضرب بيده الحائط وقال لنفسه متألمًا:

لقد قسوت على زوجتي الليلة الفائتة، كان لابد أن أكون أكثر حلمًا وتفهمًا لموقفها. لقد ذهبت إلى أهلها بالتأكيد.

وما هي سوى لحظات إلا وأحس بقدوم شخص ما إلى باب المنزل فتوجه توران ليرى من بالباب فكانت زوجته قد قدمت من الخارج واشترت لحمًا واحتطبت ببعض الأخشاب اليابسة لإيقاد التنور بغرض الطهو، فابتسم توران لزوجته حينما رآها وسألها عن سبب خروجها وأجابته في سعادة وقالت له:

سأعد لك ما تشتهيه من طعام، ولكن لا تتعجلني في ذلك.

فمد يده إلى كتفها معتذرًا لها وقال:

أرجو ألا تكوني حزينة مما حدث الليلة السابقة فلقد كنت قاسيًا بعض الشيء.

فردت عليه وهي تقبل خده:

لا أبـدًا إننـي حتـى لا أتذكـر مـا حـدث، فأنـا زوجتـك وطـوع أمـرك، هيـا دعنـي أعـد لـك الطعـام.

وذهبـت لإيقـاد التنـور وأضرمـت النـار في الحطـب وأخـذت تعـد مـا تجيـد، وبعـد أن تنـاولا الطعـام بـدا تـوران متوجعًـا لاستشـعاره آلامًـا في بطنـه وظهـره وتـأوه كثـيرًا فسـمعت زوجتـه تأوهاتـه فحـضرت عـلى عجـل إليـه وسـألته عـما يشـعر بـه ومـمَّ يتـألم؟ فقـال لهـا:

كأن نارًا تحرق أسفل ظهري ومُهلاً حارًا في معدتي وأمعائي.

فبـدت زوجتـه مشـغولة عليـه تسـأله أن تحـضر لـه شـيئًا يخفـف مـن آلامـه، ثـم بـدأ الألم يخـف قليـلاً ثـم يعـود للظهـور، فانزعجـت إيشـاهات مـما يحـدث لزوجهـا وهـو متعـب متـألم فالطعـام كان طيبًـا وشـهيًا وقـد أكلا سـويًا ولم يحـدث لهـا شيء أو مكـروه مـن أثـر مـا تنـاولا مـن طعـام، فقالـت لزوجهـا: أأذهـب إلى حكيـم القريـة لـيرى حالتـك؟

فرد عليها وهو يتصبب منه العرق من أثر الوجع:

كلا.. كل مـا في الأمـر أني تناولـت اللحـم بنهـم وشره، هـذا كلـه مـن أثـر أكل اللحـم.

فقالـت لـه: اللحـم.. مـا في اللحـم مـن شيء، فقـد أكلـت منـه وكان طيبًـا غـير فاسـد، فكيـف يكـون تناولـك للحـم هـو السـبب في آلامـك؟ لعلـه أمـر آخـر قـد أضر بـك.

فرد عليها زوجها وهو يمرر يده على ظهره:

لأن السـبب في ذلـك هـي تلـك المـرأة التـي رأيتهـا في ذلـك الكـوخ منـذ بضعة ليــالٍ.

فاندهشت زوجته وبدت متحيرة من قوله هذا فسألته قائلة:

وما علاقة تلك المرأة بما يحدث لك الآن؟

فأجابها وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

لقــد ســحرتني أصابتنــي بــشيء عــلى غــير مــا أريــد أو مــا يريــده ويبتغيــه النــاس.

فقالت زوجته: إن للأمر علاقة إذن بالسحر، ثم سألته:

أهي أعطتك شيئًا فشربته من يدها؟

فـرد عليهـا بالنفـي وهـو يهـز رأسـه: كلا، إنـه ليـس سـحر أسـود شريـر كـما هـو متعـارف عليـه ويعلمـه العامـة مـن النـاس، إنـه سـحر أبيـض مـن نـوع خـاص، وأن جـل مـا عـليّ فعلـه هـو ألا أطعـم مـن اللحـم أبـدًا بعـد ذلك.

ثم سألته زوجته: أمتأكد أنت أن هذا هو سحر أبيض.

فرد عليها مؤكدًا: بلى هو ذلك وليس شيئًا آخر، وأنا لدي دليلاً آخر.

فقالت له: وما هذا الدليل؟

فقــال لهــا: إننــي كلــما نزلـت في الطرقـات فقابلـت طـيرًا أو دابـة إلا صاحــت في وجهــي.

فقالت له: وما في ذلك من دليل؟

فقال لها موضحًا: إن الطير والحيوانات والأطفال الصغار ترى أطيافًا لا نراها نحن، فذلك السحر الأبيض الذي أصبت به يُرى في الهالة التي تحيط بي فتراها تلك المخلوقات ولا نراها نحن.

ثم قال بصوتٍ منخفض يحدث به نفسه: وربما للأمر علاقة أيضًا بالحلم الذي رأيته يوم أمس فقد أكون الآن ملعونًا، ثم قال بصوت مرتفع: تبًا للآلهة سائر اليوم! قالها وهو يعاني الأوجاع.

سمعته زوجته فدنت منه مواسية إياه:

لا تحزن لعل في الأمر خير لك بعد ذلك.

فقال لها مُحبطًا: أو شر مستطير وعذاب أليم، ثم استطرد قائلاً: المشكلة الحقيقية لدي الآن أني لا أعلم السبب في ذلك أو الغرض منه، ولكن لابد أن أعلم حتى ولو وصل الأمر بي إلى الجنون أو أن أجد هدى وخبرًا يقينًا. ثم صمت قليلاً حتى كاد أن ينتهي الألم.

فقالت إيشاهات: لقد بدأت تتحسن، أليس كذلك.

فقال لها: بلى بالفعل. فاقتربت منه في مجلسها أكثر ووضعت رأسه على حجرها ومسحت بيدها على رأسه، فعبر لها عن مشاعره قائلاً:

ربما أود أن أكون أبًا حقًا ولكن ماذا عساي أن أفعل لقد ضاقت بي الحيل في ذلك الأمر كما تعلمين طوال تلك السنوات حتى فقدت

الأمـل، ثـم أشـار إليهـا: لـو ترغبـين في ذلـك فـأتي لي بمـا أحضرتـه الليلـة السـابقة مـن لـدن الحكيـم.

فطأطأت رأسها ودنت إليه وقبلته ثم ردت عليه قائلة:

لقـد أمرتنـي أن أنـسى، فهـل تنـسى أنـت أيضًـا؟ يجـب أن نـرضى بنصيبنـا الـذي قسـمته لنـا الدنيـا.

ثم سكتت قليلاً وطالبته بطلب قائلة:

أتعاهـدني كـما أمرتنـي بـأن أنـسى الإنجـاب أن تنـسى أنـت أيضًـا تلـك المـرأة في ذلـك الكـوخ. فسـألها: لمـا؟

فـردت عليـه: لـكي نحافـظ عـلى مـا بقـي لنـا مـن سـعادة دون أيـة منغصـات.

فقـال لهـا: أعاهـدك، ثـم أردفـت قائلـة: يجـب أن ننـسى هذيـن الأمريـن كي تسـتقيم حياتنـا بعـد ذلـك.

اجلس فوق تلك الصخرة

هـا قـد مـر الشـهر ومـع اقـتراب أيامـه إلى الـزوال كان قلـب تـوران يرجـف كل ليلـة ويتـوق إلى انـزواء القمـر حتـى يصـير محاقًـا ويلتقـي بتلـك المـرأة عنـد الكـوخ الصغـير. فكانـت تتفاعـل داخـل نفسـه الرغبـة في المعرفـة خاصـة مـا يريـد أن يعرفـه الجميـع بـلا اسـتثناء ألا وهـو الإجابـة عـلى هـذا السـؤال، مـاذا سـيحدث لنـا؟ ولكـن هنـاك سـؤال آخـر يغفـل النـاس عـن معرفـة إجابتـه، مـاذا حـدث لنـا؟ هـل حياتنـا هـذه هـي البدايـة فقـط بـلا مـاضٍ معلـوم؟

بجانـب هذيـن السـؤالين، كان ذهـن تـوران متحـيرًا مـن جهـة أخـرى فهـل سـيجد تلـك المـرأة أم أنهـا سـتختفي وتنكـث وعدهـا لـه، كـما كان يجـد في نفسـه الخـوف والرهبـة فربمـا هنـاك مـن لا يـرضى بهـذا اللقـاء مـن الآلهـة. ظـل تـوران يعـد الليـالي ليلـة بعـد أخـرى في انتظـار تحـول القمـر إلى محـاق وهـو ينظـر إلى صفحـة السـماء كل ليلـة. وبحلـول الليلـة الأخـيرة مـن الشـهر القمـري بـدأ يعـد نفسـه فخـرج مـن داره تـارة لينظـر إلى السـماء وإلى صـيرورة القمـر محاقًـا، وتـارة ينتظـر سـكون النـاس في قريتـه حتـى لا يتتبعـه أحـد منهـم وهـو يتهيـب موقـف أن يسـأله أحـد منهـم عـن سـبب خروجـه وحيـدًا في جنـح الليـل خـارج أقطـار القريـة. ثـم هيـأ نفسـه للخـروج مـن بيتـه والذهـاب إلى ذلـك الكـوخ الصغـير فجمـع

شتات أنفاسه وعزم على الذهاب وأخذ معه فأسه وأمسكه بيده ثم انطلق وهو يبصر طريقه على حافة النهر، وكانت خطواته متسارعة في البداية وكاد ينكب على وجهه أكثر من مرة توترًا ثم بدأت خطواته في الهدوء والتروي، وعند الاقتراب من مكان الكوخ أمعن النظر إلى رؤية الكوخ وهو يصارع فكرة عمن بداخله وعن عدم وجود الكوخ من الأصل ولكنه أبصره فأحس بسعادة لحظية اختلطت بمشاعر الترقب والقلق حتى اقترب منه ورآه رؤية كاملة ثم مد يده ليلمسه ليتيقن من وجوده يقينًا شاملاً ثم نادى قائلاً: أيوجد أحد هنا. قالها بصوت منخفض ولما لم يجد جوابًا دفع باب الكوخ داخلاً إياه فوجد تلك المرأة فألقى عليها السلام، فردت عليه التحية قائلة:

سلمت وغنمت لقد جئت في موعدك تمامًا.

فقال لها متلهفًا: وهل يمكن أن أغفل لكِ موعدًا؟

ثم بدا متملقًا إياها وكان يدور في رأسه سؤال لها فقال متهتهًا:

لدي سؤال لكِ فهل تجيبيني بكل صراحة؟

فردت عليه بكل ثقة: بلى، وإجابة سؤالك هو أن اسمي «حَليلة».

فقال لها منشرح الصدر: لقد علمتِ سؤالي قبل أن أسأله، فهل تجيبيني على كل الأسئلة التي ينشغل بها بالي صراحة جملة واحدة.

فردت عليه: لا تتعجل الأجوبة فإن في العجلة الندامة، وإن عليك أن تجمع ما لديك من معرفة وما تتذكره فتعلمه وعليك أن تتفكر

فيه قبل أن تتيقنه حتى تتذكر كل شيء، فيكون هذا هو سرك الذي لن يعلمه أحد غيرك من الناس فعليك أن تكتشف بنفسك هذا السر وألا تبوح به لأحد أبدًا.

ثم دعته إلى الاقتراب منها فدنا منها فوضعت يدها على رأسه ثم سألته:

أترى شيئًا في مخيلتك؟

فرد عليها: لا أرى شيئًا.

ثم وضعت يدها الأخرى على يده اليمنى ثم أعادت عليه السؤال فرد عليها:

نعم إني أرى مكانًا.

ثم قالت له سائلة وهي عالمة بجوابه لها:

أرأيت هذا المكان من قبل؟

فأجابها: نعم، إنها صخرة شاطئ عند التقاء النهرين، إني أعلم هذا المكان جيدًا.

فرفعت يداها عنه ثم قالت له:

اذهب واجلس على تلك الصخرة وانظر جيدًا إلى صفحة الماء وستعلم ما لم تكن تعلم وما لا يمكن شرحه، كما ستتذكر حياتك الأولى التي كنت تحياها وتذكر ما حدث لك ولأهلك من أحداث وتذكر ما فعلته من فعل فأكرمت وأثبت عليه. اذهب الآن على أن تعودني

ثانيـة الشـهر المقبـل عنـد اكتـمال المحـاق كعادتنـا.

فقـام تـوران مذهـولاً مـما حـدث إذ أنهـا حينـما وضعـت يداهـا عليـه كأن شريطًـا مـن الذكريـات مـر عليـه فتكدسـت تلـك الذكريـات مـن أشخاص وأحـداث يعلمها جيـدًا ويعلـم بحدوثها ثـم بـدأت تتهـاوى في ذاكرتـه. لقـد علـم أن لـه حيـاة أخـرى كان يحياهـا قبـل هـذه الحيـاة وأن لـه أهـل وأقـارب وأحـداث جسـام وقعـت لـه وفعـلاً حسـنًا قـد فعلـه فرفعـه مقامًـا عاليًـا عليـه أن يتذكـر بدايتهـا، وأولهـا ذكـرى حياتـه الكاملـة عليـه أن يعيهـا بعمـق ودقـة سرًا غـير مبلـغ عنهـا لأحـد في هـذا العـالم.

ثـم عـاد تـوران أدراجـه إلى بيتـه بخطـوات متسـارعة حامـلاً فأسـه وكان غـير صـاف الذهـن مشـغولاً بتفاصيـل فاجأتـه ذكرياتهـا.

فدخـل بيتـه وكأنـه مصـاب بالصـداع إذ تـراوده أفـكار عـن تلـك الذكريـات فعمـد إلى زوجتـه فوجدهـا منتظـرة إيـاه فبادرتـه بسـؤال مستفسرة عـن سـبب خروجـه مـن البيـت في تلـك الليلـة، فلـم يـرد عليها مسـتهينًا بسـؤالها.

فسألته وهي مصرة: أذهبت إلى ذلك الكوخ؟

فأجابها وهو مقتطب الجبين:

نعم ذهبت إلى ذلك الكوخ.

فقالت له: أوجدت تلك المرأة؟

فلـم يـرد عليهـا وأهمـل سـؤالها، وقـام بتغيـير اتجـاه حديثهـما طالبًـا

منهـا شراب النبيـذ فتنبهـت إلى ذلـك قائلـة لـه:

لقد عاهدتني بأن تنسى ذلك الأمر.

فغضب لقولها وابتعد عنها وهو يستنكر ذلك، فقالت له:

إنك تفسد بهذا الفعل طريق حياتنا سويًا.

فصاح في وجهها قائلاً لها:

مـا كان ينبغـي لـكِ أن تجعـلي نفسـك قيمَـة عـليّ فأنـا لسـت بصغـير تنهـاه أمـه عـن فعـل الأشـياء التـي قـد تؤذيـه ولا مجنـون أتخيـل أشـياء غـير موجـودة ولا عاجـز أحتـاج لمـن يعولـه أو يسـاعده في جلـب الأشـياء.

لا تنـسي بـأني رجلـك وأنـتِ امـرأتي عليـكِ طاعتـي وعـدم التدخـل في شـأن مـن شـئون لا تخصـك.

فقالـت باكيـة: لا تخصنـي؟ ... إنـك قـد نسـيت أني زوجتـك وأن أمـرك هـو أهـم أمـر في حيـاتي وأنـا أرى أنـك تتعـرض لأشـياء بهـا ضرر لـك ولي أيضًـا في نفـس الوقـت.

فـرد عليهـا: اهتمـي بشـئونك أنـتِ، الأولى لـكِ طاعـة زوجـك وتلبيـة كل احتياجاتـه التـي يطلبهـا منـك.

فـردت عليـه: بـلى سـأهتم بمـا تأمـرني بـه فقـط ولـن أسـألك عـن شيء يخصـك فيـما بعـد.

لا تشعل نارًا في ملكي

عاد توران إلى بيته بعد عمله في الزراعة بالحقل الذي يملكه وقد أحضر معه بعضًا من الثمرات من الأشجار والنخيل، وجلب حفنة من الخشب اليابس لاستخدامها في إيقاد النار أثناء الليل للاستدفاء من البرودة المتزايدة التي يُعرف بها قدوم فصل الشتاء، وكان عمله مرهقًا فخلد إلى النوم مباشرة. ورأى في منامه كأنه يسير عند التقاء النهرين ونظر فوجد الصخرة فذهب إليها ليجلس عليها فجلس ثم نظر حوله فأبصر قاربًا عليه اثنين من الصيادين يمسكان بالشباك لغرض الصيد من النهر، فوجدهما قد اصطادا صيدًا وفيرًا ثم رسى القارب بهما على شاطئ النهر من الجهة المقابلة ليقتسما صيدهما ثم رآهما من مكان بعيد قد اختلفا في مقدار قسمتهما فدارت بينهما مشاجرة قام أحدهما على إثرها بأن ألقى نصيبه في الماء وذهب غاضبًا. ثم استيقظ توران من منامه وقد أسر في نفسه الذهاب إلى ملتقى النهرين فجهز جهازه ثم خرج من بيته حتى إذا اقترب من مقصده رأى في الواقع كما رأى في منامه قبل قليل تمامًا فكانت رؤياه كفلق الصبح كمن رآها حقيقة من قبل أن تحدث، وبعد أن جلس على تلك الصخرة رأى هذين الصيادين يصطادان حتى إذا اقتسما دارت بينهما مشاجرة وألقى أحدهما نصيبه في الماء وهو غاضب وحدث كما حدث تمامًا في رؤيته.

أبـدى تـوران اندهاشًـا عظيـمًا واقشـعر بدنـه لأن ثمـة أحـداث يمكـن رؤيتهـا قبـل حدوثهـا وهـو دليـل عـلى قـدرة النفـس البشريـة عـلى التفـوق عـلى مـادة الجسـد الضعيفـة والفانيـة وعـلى الزمـن أيضًـا. ذلـك أن الزمـن الـذي هـو البعـد المتحكـم في حـدوث الأشـياء وارتبـاط المخلوقـات بهـا ارتباطًـا لزوميًـا في سـير الأحـداث يمكـن للنفـس البشريـة الاسـتعلاء عليـه وجعلـه مـن مُتحكِـم بالنـاس إلى مُتحكَـم بـه مـن بعـض النـاس الذيـن لديهـم القـدرة عـلى ذلـك؛ فهـم عـلى الأقـل قـادرون عـلى تخطـي ذلـك الحاجـز كـما يحـدث أثنـاء النـوم مـن رؤى مسـتقبلية وهـو خـير دليـل عـلى ذلـك.

ثـم أخـذ تـوران نفسًـا عميقًـا وتنهـد ونظـر إلى صفحـة المـاء عـن قـرب كـما أمرتـه حليلـة فـرأى وجهـه وبـدأ يتفكـر فيـما حـدث لـه ويسـتدعي الذكريـات.. تلـك الذكريـات التـي تتسرب إلى ذهنـه بكـم كبـير حتـى خُيَّـل إليـه أن صفحـة المـاء تتغـير معالمهـا، فلـم يعـد يـرى وجهـه فنظـر بدقـة وتمعـن وحـذر فـرأى نفسـه في أرضٍ بيضـاء منبسـطة لا ارتفـاع فيهـا ولا انخفـاض مضـاءة ولكـن لا يضـئ فيهـا مـضيء معلـوم فـلا شـمس ولا قمـر ولا هـو يعلـم مصـدر الضـوء ونظـر إلى سـمائها فوجدهـا عبـارة عـن دخـان أبيـض كثيـف وهـو لا يعـرف أيـن ذلـك المـكان ولم يعلـم عنـه شـيئًا مـن قبـل.

لم يكـد يمـر الوقـت إلا وسـمع صرخـات متتاليـة تـأتي مـن السـماء وهـي أصـوات تـصرخ كمـن فقـد لـه عزيـز فجـأة أو مـن يتعـرض لأذى

شديد مع عدم وجود مناص للخلاص وازدادت أعداد تلك الصرخات لرجال ونساء حتى إذا رأى كأن أناسًا تهوي من داخل ذلك الدخان الأبيض الكثيف يتساقطون كما تتساقط أوراق الأشجار في فصل الخريف وهي أصوات آلاف الآلاف من الصرخات وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت كصوت الرعد يعقبه صوت ضخم جهوري وقوى جدًا يقول «إله .... إله» فقذف في قلبه الرعب وتعالت مع ذلك أصوات الصرخات وازدادت، ثم قال صاحب ذلك الصوت بشدة:

«الملك لي وحدي ... السلطان سلطاني ... الكمال لي وحدي»

وازدادت تلك الصرخات حتى توقفت تمامًا تصاحبها ضحكات من صاحب ذلك الصوت القوي العظيم، ثم سكن كل شيء وضرب الرعد المكان ودوى دويًا شديدًا ثم سمع صاحب ذلك الصوت يخاطبه بعنف:

«أنت.. لا تشعل نارًا في مُلكي»

فارتعد توران بشدة من ضخامة هذا الصوت وقوته ومن هول هذا الموقف العجيب ومن هذا القول الموجه إليه.

ثم دعا السماء والأرض إلى ملكه وأمره فأجابتا طائعتين من هول ما شاهداه.

أخذ توران نفسًا عميقًا وألقى نظرة إلى السماء ثم عبس بوجهه لعلمه بسر يقين قد أحزنه وأعاد نظره إلى صفحة الماء مرة أخرى، وكان قد نما إلى علمه أشياء كان يجهلها وأهمها رضوخ الأدنى وهما

السماء «آن» والأرض «كي» من بعد صرع الأعلى وهم السامدون فوق ذلك الدخان الكثيف. فابتسم ابتسامة حزينة، ودارت في رأسه الأفكار المتوالية؛ فقد علم بأن هذه الصرخات هي أصوات السامدين في عالم الكمال المطلق الأبدي وأن تلك الأصوات هي أصوات البشر قبل أن يأسرهم مردوخ. كما علم أن صاحب هذا الصوت هو «مردوخ» حينما نصب نفسه إلهًا على هذا العالم وازداد علمه بذلك عما علمه من قبل بحقيقة «مردوخ» التي أخبره بها العجوز الحكيم في المدينة وأسر ذلك في نفسه.

ثم رأى بعض من تلك الأسماك النافقة التي ألقاها أحد الصيادين تقترب إلى حيث موقعه على تلك الصخرة، وشاهد فجأة أمرًا عجيبًا بأن بدأت تلك الأسماك بتحريك ذيولها وخياشيمها قليلاً حتى عادت إليها الحياة مرة أخرى لتغوص في الأعماق كما كانت قبل اصطيادها ونفوقها.

«يالغرابة هذا المكان فقد اختارته حليلة لما به من مزايا وخوارق» هكذا قال توران في سريرته مندهشًا ومتعجبًا. فلقد علم توران أن جميع المخلوقات في هذا العالم هي مأسورة لمردوخ ومن معه من كل الكائنات المرتبطة بآيات خلقتها.. فالأسماك في المياه والزواحف التي تحيا في الظلام وباقي المخلوقات التي تبحث عن الدفء في النار والبشر الذين كانوا سامدين في عالم الكمال المطلق الأبدي ثم أسرهم مردوخ فجميعهم يخضعون لإرادته، وتيقن بأن البشر قبل

أن يتم أسرهم كانوا في حال أفضل من أحوالهم في هذا العالم فكانوا في سباتهم يرون الرؤى والأحلام السعيدة بكل براءة فقط دون أية شرور توقظهم فكانوا يتفوقون على البعد الزمني وما يمثل ذلك هو بداية الشعور بالنعاس كإحساس مثير للراحة وما قد يمكن رؤيته في منام سعيد يظن النائم عند بداية استيقاظه بالقدرة على فعل ما هو صعب أو مستحيل وهو الإحساس بالقدرة على فعل أشياء خارقة. وذلك الشعور للنائم بتلك القدرة يلازمها الإحساس بالسعادة والراحة النفسية الكبيرة فذلك هو الإحساس الذي كان يتمتع به دائمًا السامدون في عالم الكمال المطلق الأبدي حتى طردهم مردوخ ليكون بذلك هو رمز الكمال المطلق الوحيد في هذا العالم.

ثم قال توران لنفسه:

إنه نوع من الجحيم مؤكدًا.. إنه كذلك أن تكون حيواتنا بهذا الشكل وبهذه الطريقة فحينما أنظر في أعين الأطفال أجد البراءة التي لا تستحق ولا يجدر أن يفقدوها عندما تنفتح أعينهم على حقيقة هذا العالم، إنهم كانوا في عالم أفضل عالم الكمال لا معنى إذًا بأن بكاء الأطفال لكل حاجة أو عوز هو بحد ذاته دليل على الفطرة الرافضة لهذا العالم وهذا النوع من الوجود إن لم يكونوا في عالم سابق أفضل من عالمهم هذا، وما كان ذنبهم بأن طردوا وكانت ولادتهم بمثابة عقوبة على جرم لم يحدثوه ولم يُقترَف من الأصل، هذه هي الحقيقة جميعنا مطرودون من عالم أعلى ولم يصارحنا أحد بذلك أو بالأدق لا

نتذكـر بوعـي كامـل ولكننـا نتذكـر ولـو قليـلاً بـشيء مثـل ذلـك أو قـد نشـعر بـه حينـما نتفكـر في ماضينـا ولكننـا لا نتذكـره بشـكل كامـل.

إن «مـردوخ» هـذا هـو مجـرد منتهـز هـو ومـن معـه فقـد انتـصر بعقلـه عـلى أقـدار الباقـين، فقدرنـا هـو عـالم أفضـل مـن هـذا العـالم لكننـا أسرنـا فيـه رغـمًا عـن إرادتنـا فهـل نفقـد الأمـل في العـودة لعـالم أفضـل أو نبقـي هـذا سرنـا الصغـير حتـى ننجـو مـن الذهـاب إلى الجحيـم المسـتعر. فالحيـاة سـتجد لهـا سـبيلاً كـما حـدث منـذ قليـل مـع تلـك الأسـماك النافقـة التـي عـادت إليهـا الحيـاة حتـى وإن بـدأت ذاكرتنـا فيهـا مثـل ذاكـرة تلـك الأسـماك، فـإن أقدارنـا ومصائرنـا كـما نحـن نظنهـا سـتكون كـما نتمناهـا أو نرجوهـا فتلـك إرادة المبدعـين الحالمـين الأخيـار طالمـا ليـس بهـا تعـدٍ أو ظلـم كإرادة المنتهزيـن الأشرار، وإن القـدر سـينتصر عـلى العقـل في هـذا الـصراع القائـم بينهـما.

بـدأ جنـوح الظـلام وإقبـال الليـل عـلى تـوران فعـزم عـلى المغـادرة والعـودة إلى بيتـه حزينًـا كاتمًـا لـكل مـا رأى ومـا شـاهد وأسر داخـل نفسـه الكثـير مـن الأسرار والآلام.

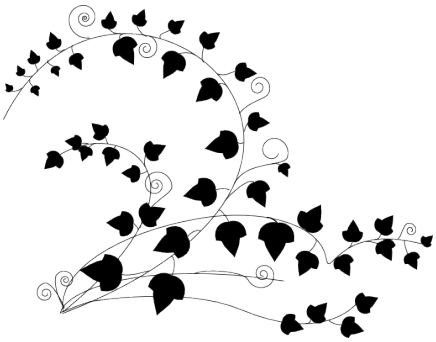

توران يتذكر

منذ زمن سحيق لم يكن لجنس البشر أي وجود في هذا العالم وكان هذا العالم غير مشمول بعناية الآلهة بل كان مرتعًا لوحوش الغاب وكانت هناك أجناس أخرى تسكن في هذا العالم التحت أرضي وهم الحن والبن والجان.

وهنا يتذكر توران وهو جالس على الصخرة عند ملتقى النهرين حياته الأولى قبل أن يوجد في عالمه هذا. آنذاك كان هذا العالم عبارة عن أرض منسية من الآلهة تطوقه سبعة عوالم في السماء؛ فكانت الأرض من أراضي الظلمات لا يضئ فيها مضيء، فلا الشمس فيها ساطعة على الدوام ولا كان ليُعرف القمر لينير فيها لياليها، وكانت قبائل الحن والبن هم من يسكنون تلك الأرض الظلامية في ذلك الوقت بجانب الجان.

وكان الأرباب وسيدهم مردوخ يعلون في هيكل الأرباب في السماوات العلى ولا يهتمون أبدًا بمن هم في هذا العالم أو ما يحدث لهم فكانت قبائل الحن المتوحشة تغير على جنس قبائل البن المسالمين أشباه البشر.

وهناك يتذكر توران تلك المشاهد التي يراها على كامل حقيقتها ويبصرها على صفحة الماء وهو جالس على الصخرة، ولقد رأى بالفعل

في منامه على مدار حياته منذ أن كان طفلاً صغيرًا كثيرًا من تلك المشاهد ولم يكن ليدرك تفسيرًا لها، فكان يرى في منامه رؤى متكررة عن أماكن ظلامية موحشة وكان يشعر بأنه يعلمها ولكنه لم يستطع تذكرها آنذاك، أما عن الأشخاص فحينما رأى توران مخلوقات من البن وهو جالس على الصخرة بدأ يتذكرهم فلقد رآهم من قبل أثناء نومه.

«نعم تلك أمي وهذا أبي وهذا أخي نعم لقد تذكرتهم جيدًا».

بهذه الوسيلة تذكر توران أخيه ووالديه، وبتذكر عائلته حينها بدأت تجيش في نفسه مشاعر كثيرة مختلطة.. مشاعر من الفرحة والاشتياق لذكرى أحبائه في هذا العالم القديم. إنه يتذكرهم تمام التذكر وبدا قلبه منشرحًا وهو يردد أسماءهم، لقد تذكر اسم أخيه وقال في شوق ناظرًا إلى صفحة الماء وهو يود لو كان ما يراه واقعًا ليلقي بنفسه فيه كي يلقى أخيه ويحتضنه «حوران أخي».

لقد كان توران يراهم من قبل وشاهد أحداثًا ووقائع منذ صغره في نومه وكان يفيق صارخًا: «أبي...أمي» ثم يكتمل وعيه فلا يتذكر حقيقة ما رآه ويبدو له مجرد كابوس من فعل الأرواح الشريرة. وحينما كان يرى تلك الأحلام المزعجة في صغره كان يؤخذ إلى معبد الأرباب فيقرأ عليه الكاهن بعض من التلاوات لكي يبرأ من مس الأرواح الشريرة حتى إذا شب كان توران مهتمًا أكثر فأكثر ليجد تفسيرًا لتلك الرؤى المتكررة والأحلام المزعجة التي لا يجد لها تفسيرًا أو معنى حقيقي.

أما الآن فتوران بدأ يتذكر ما كان يراه أثناء نومه في فترة طفولته.. حياةٌ له في عالم آخر غير عالم الإنس وفيها ذكريات الحروب التي كانت بين قبائل الجن وقبيلته من الجن مما كان يبث الرعب والفزع في نفسه وهو صغير.

يصرخ توران متألمًا وهو جالس على الصخرة: «لا.. أبي.. أمي»

ثم قال في سريرته: «لا أريد أن أتذكر ذلك».

ثم نهض مغادرًا مكانه من الصخرة حزينًا باكيًا مطأطأ عنقه ناظرًا لأسفل قدميه وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا متأسيًا مما تذكره؛ لقد تذكر فقدانه لمعظم أهله وهو صغير في ذلك العالم القديم لقد افترستهم مخلوقات من الجن ذوي الأنياب والمخالب. يا له من مشهد قاسٍ على قلب توران أن يتذكر مثل تلك الذكريات المؤلمة.

بينما يسير توران متجهًا إلى بيته كان يحاول أن يتفادى ذكرياته المؤلمة عن والديه في ذلك العالم القديم بتذكر أخيه «حوران» الذي كان يراه في منامه كثيرًا منذ عمر طويل ولم يكن ليعرفه أو يحدد شخصيته.

لقد كان حوران مقترنًا مع أخيه توران لا يفترقان في ذلك العالم الظلامي ذو السماء الصفراء التي يكثر فيها الأمطار والبرق والرعد، فكان بمثابة رفيق الحياة وكان يتذكر أكثر اللحظات السعيدة التي عاشاها معًا وتذكر أيضًا كيفية رعايته لأخيه بعد فراق والديهما كما تذكر لحظات مرضه وسكرات موته وتركه لأخيه حوران وحيدًا في ذلك العالم القاسي.

وطـرح سـؤالاً عـلى نفسـه: «أيـن أنـت يـا حـوران؟ كـم أفتقـدك! هـذا السـؤال لـن يجيـب عليـه أحـد إلا حليلـة».

ثم قال: كم أود أن يمر الوقت سريعًا للقائك يا حليلة.

وفي صبـاح اليـوم التـالي، بـدت رغبـةٌ في نفـس تـوران لزيـارة صديقـه نصـير في المدينـة وبعـد أن عمـل في حقلـه صـار مسـتعدًا لقيامـه بتلـك الزيـارة إلا أن صديقـه نصـير فاجـأه بزيارتـه هـو لـه فرحـب بـه ترحيبًـا كبـيرًا وسـأله عـن أحوالـه فأجابـه بـكل سرور:

بخير شكرًا للآلهة.

ورد عليه بذات السؤال فأجابه توران:

بخير أيضًا، ألا ترغب في قضاء اليوم معي؟ فأجابه: نعم وما المانع.

ثم استكمل قائلاً: ألديك رغبة في الذهاب إلى الصيد معي.

فـرد عليـه صديقـه: لا أبـدًا، بـل إني قـد اشـتقت للاصطيـاد بالفعـل، أأحـضرت معـك رماحًـا أو قوسًـا وأسـهمًا لغـرض الصيـد.

فقال له: بلى، ها هو قوسك وأسهمك وهذا قوسي وأسهمي.

ثم قال له مازحًا: أنت على استعداد دائمًا.

فرد عليه: لقد تعلمت هذا منك.

ثـم انطلقـا في البريـة وطفقـا يذكـران النـكات المضحكـة طـوال طريقهـما حتـى وصـلا إلى مقصدهـما وأخـذا يترقبـان ناظريـن بتمعـن بـين الأشـجار وحولهـا وكانـت الريـح تهـب تلـو الأخـرى تجعـل لحفيـف أوراق

الأشجار صفيرًا في آذانهم وأحس توران بحركة ضئيلة بين الشجيرات وهو على مكث فقال لصديقه:

أتريد صيدًا كبيرًا؟

فاقترب منه نصير قائلاً: أرأيت غزالاً أم وعلاً؟

فأمسك بغصون الشجيرات مزيحًا إياها فوجدا أرنبًا ما لبث إلا أن فر ما إن شعر بهما، فقال لصديقه ساخرًا: هذا هو صيدك اليوم، فضحكا الاثنان. وقال نصير: ما لهذا جئنا، ما علينا غير الانتظار لرؤية ما نريد ثم عليك يا صديقي أن تحسن التصويب. فمشيا قليلاً بين الأشجار ثم مكثا غير بعيدين عن بعضهما يترقبان فرأى توران غزالاً وحيدًا بعيدًا فأشار نصير إليه بأن يمسك هو قوسه فنهاه توران بإشارة منه وأمسك هو قوسه ثم وضع سهمًا وأعده واتخذ توران وضع التصويب وأطلق السهم فأصاب الغزال الذي حاول الفرار في مقتل وسقط صريعًا، فهرعا الصديقان لاقتياد الغزال وقال نصير له: أحسنت التصويب ساعدني الآن لرفعه.

وأمسكا بصيدهما ووضعه توران على كتفيه، وكانا سعيدين بغنيمتهما وظلا يتبادلان الحديث فقال نصير لتوران:

مرحي يا رجل لقد كنت أمهر منى في الاصطياد هذه المرة، إنه لصيد ثمين.

فقال له: ليست هذه هي المرة الأولى وإنك تعلم مهارتي وقدرتي في القنص والتربص بالصيد.

فقال له نصير مازحًا: لولا أنك منعتني من التصويب لكنت أنا أصبته.

فقال له توران وهو يضحك: بلى، وهل يوجد شك في ذلك؟

فقال: لا بالتأكيد، ثم قال مادحًا: بالفعل أنت تجيد القنص بالقوس وتوجيه الأسهم أفضل مني.

وظلا يتمازحان إلى أن دخلا القرية ووصلا إلى بيت توران فلما رأتهما إيشاهات ظهرت فرحتها بهذا الصيد وقالت لهما بسعادة:

سأحضر الحطب لأجل الشواء.

فعمدت لإحضار الأخشاب اليابسة ثم قام توران بإشعال النار في الحطب حتى صار جمرًا لشواء لحم الغزال بعد أن جهزه نصير ووضعاه على الجمر المشتعل، وكانا سعيدين للغاية إذ رغب توران في إطالة الحديث بينه وبين صديقه بسرد الحكايات وتذكر الذكريات أثناء حفلة الشواء. حتى إذا نضج اللحم نزع توران لصديقه فخذًا من لحم الغزال وأعطاها لصديقه نصير فأكل منها بنهم، ثم سأله: ألن تأكل معي؟

فرد عليه: لا رغبة لي في أكل اللحم.

فتعجب نصير وبدا مندهشًا: ألديك سبب في ذلك؟

فلم يذكر توران السبب الحقيقي وذكر له أعراضه فقط قائلاً:

إن معدتي تؤلمني حينما أطعم لحمًا.

فسأله نصير مستفسرًا: منذ متى ذلك؟

فأجابه: منذ وقت ليس ببعيد.

ثم سأله: هل عرضت حالتك على حكيم، فأجابه بالنفي.

فطالبه بعرض حالته على حكيم، وأشار عليه بالذهاب إلى حكيم الكهنة في المدينة، فأرجأ توران الذهاب إليه معلقًا نية الذهاب إذا صادف وجوده في المدينة، فشدد عليه حتى لا تكون في حالته خطورة على صحته فرد عليه توران منهيًا لهذا الحوار: إنه ليس بالأمر الهام سأفعل لو أحسنت الآلهة الظروف.

ثم سأل توران صديقه سؤالاً ملحًا عليه فقال:

ماذا يقول الكهنة في معبد الآلهة عن المصير؟

فقال له وهو يلوك اللحم في فيه: أي مصير تقصد؟

فقال له موضحًا: مصير الناس في هذه الدنيا. فأجابه: المصير هو كما أظنك تعلمه هو الذهاب إلى أرض النعيم الدائم للأخيار الذين ترضى عنهم الآلهة أو إلى أرض العذاب الدائم للأشرار الذين تغضب من سلوكهم الآلهة من بعد الموت.

فرد عليه توران سريعًا: بلى أنا أعلم ذلك لكنه ليس هذا النوع من المصير هو مقصدي.

فقال له وهو يقضم قضمة أخرى: فما قصدك إذن؟

فقال: مصير الناس الذين ينتظرون مخلصًا لهم في هذه الحياة،

فكـما تعلـم أنـت أن كل أهـل ملـة ينتظـرون مخلصًـا؛ إذ لـدى الصابئـة نبـوءة عـن مخلـص يـأتي في زمـن قريـب لتخليصهـم مـن شرور هـذه الدنيـا وأشرارهـا.

فـرد عليـه نصـير: بـلى، أنـا لـدي علـم عـن تلـك النبـوءة فلـدى فريـق مـن الصابئـة نبـوءة تحـكي عـن قـرب ميـلاد سـيد هـذا العـالم يمـس النـار ولا تحرقـه وسـيكون سـيدًا للنـاس وقائدهـم وإمامهـم جميعًـا، أمـا عندنـا نحـن فكـما تعلـم أن الآلهـة الكبـار هـم المخلصـون لنـا كلنـا وأن علمنـا بمصيرنـا يقتـصر عـلى العلـم بالفلـك مـن الأبـراج والكواكـب.

فقال له توران: وماذا يقول عبدة النار في حق مخلصهم؟

فأجابـه عـلى تـأني بعـد أن ابتلـع قطعـة مـن اللحـم: إنهـم يطلقـون عـلى المخلـص لهـم لقـب الأسـد المجنـح الـذي سـيفترس أعدائهـم ويخلصهم مـن شرهـم وإيذائهـم لهـم وسـيقوم بنـشر تقديـس النـار في الأرض جميعها.

فقـال تـوران: إذن فإنهـم جميعًـا متفقـون عـلى وجـود مخلـص يخلصهـم مـن الإيـذاء الـذي يتعرضـون لـه سـواء كان بشريًـا يُنتظـر أو إلهًـا يُعبـد.

فقال له نصير: وما غرضك من كل هذا؟ أتريد انتظار مخلصًا؟

فقـال: كلا، بـل عـلى العكـس تمامًـا فلـدي رؤيـة مختلفـة عـن عامـة النـاس.

فسأله: وما تلك الرؤية؟

فـرد قائـلاً: إني أرى أن الخـلاص الحقيقـي لا يكـون في الرغبـة في انتظـار مسـاعدة مـن أحـد بـل ينبغـي أن يكـون في القـدرة عـلى البقـاء والنجـاة؛ ذلـك أن الباقـين الناجـين هـم وحدهـم مـن يسـتطيعون تقريـر مصيرهـم بأنفسـهم، وأن فرصـة الإنسـان في الخـلاص مـن سـوء المصـير تكمـن في البقـاء ناجيًـا مـن كل ذي شر.

فقاطعـه نصـير: إن وُجِـدت تلـك الفرصـة؛ فالنـاس آجالهـم محـدودة ومادتهـم ضعيفـة وقدرتهـم بائسـة لذلـك فأغلبهـم يريـدون نـصرًا لمعتقدهـم وخلاصًـا في الحيـاة أمـلاً في أحـد آخـر غيرهـم لعـدم قدرتهـم عـلى ذلـك، وإني أتفـق معـك أن هـذا دليـل عـن النقـص والضعـف وأن الفرصـة التـي تتحـدث عنهـا تـكاد تكـون معدومـة.

نظـر تـوران إلى صديقـه وهـو يكمـل تنـاول طعامـه ثم نظر إلى السـماء وقـال بصـوت خافـت: إلا أني قـد جاءتنـي هـذه الفرصـة على مـا أعتقد.

فانتبه صديقه نصير وقال: ماذا قلت مهمهمًا؟

فرد عليه: لا شيء، ثم اعتدل في جلسته وقال له:

إن البقـاء ناجيًـا كمـن يـضرم نـارًا في ليـل الشـتاء القـارس ليبقـى دافئًـا وليحفـظ حياتـه، ويجـب أن تبقـى النـار مشـتعلة لأن النـار تـأكل بعضهـا بعضًـا.

ثـم قـال لـه نصـير: أو كأشـبال الأسـود تريـد مـن يحميهـا مـن الافـتراس مـن لـدن أسـود غربـاء حتـى تكـبر وتصـير في غنـى عمـن يحميهـا لأن ذلـك هـو منطـق الغابـة التـي نحيـا في شـعابها.

فقاطعه توران: وما الحال إذا كنا نحن الغزلان؟

فرد عليه صديقه نصير: أنا لم أفهمك.

فرد عليه: ليست الفرصة في الخلاص الحقيقي في هذا العالم! لقد اعتدت على سماء زرقاء وأرض خضراء وكل ما فيهما يأكل بعضه بعضًا.

ثم سأله: ماذا تعلم عن علم التنجيم والأبراج والكواكب؟

فأجابه نصير: إن لكل مرء منا نجمًا يتحكم في مسيرة حياته، وأن الكواكب السيارة تؤثر في سير واتجاه كل إنسان في هذا العالم وارتباط مسارات النجوم بالكواكب والقمر بأوضاع معينة في أفلاكها تؤثر على كل إنسان في رزقه وحالته، وأن الآلهة الكبار يرمز إليهم بالكواكب والنجوم المشهورة تلك.

فقال له توران مضيفًا: إذن أنت تعلم أن عدد النجوم لا يحصى لكثرته في آفاق الكون.

فأجابه نصير: نعم وما الذي تهدف إليه؟

فأكمل توران: إن عدد النجوم يساوى عدد الأنفس التي هي على سطح الأرض.

فقاطعه نصير: وماذا في ذلك؟

فقال توران وعيناه لامعتان: معنى ذلك أن لكل نفسٍ مُلكًا كملك الآلهة، ولكن تلك الآلهة اعتلت هذا الملكوت الضخم واحتكرت ذلك الملك العظيم لأنفسهم.

فرد عليه نصير: صه، لا ينبغي أن تتطاول على الآلهة حتى لا يؤذوك.

ثم سكت برهة وقال: وحتى إن كان كلامك صحيحًا فما قدرتك على مواجهة الآلهة ونحن مشدود أسرنا.

فرد عليه توران ضاحكًا: الآلهة هؤلاء هم مجرد منتهزون إذا عُبدوا ازدادت قوتهم وسطوتهم وقويت بطشتهم، وإذا دعاهم داعٍ نظروا إليه باحتقار وعن تعجرف كمن هو واقف فوق مكان عالٍ ينظر إلى الحشرات غير مهتم بأحوالها من الأصل.

ثم استكمل حديثه قائلاً: إني أقول لك قولاً أصدقك فيه.. هؤلاء الآلهة لا قدرة لهم إلا على الضعفاء الذين يذهبون إليهم بأنفسهم ولا شجاعة لهم إلا على الجبناء الذين يخشون غضبهم.

فرد عليه نصير باستنكار: حقًا أيها القوي الشجاع لقد بدأت أخشى عليك.

فقال له توران: لا تخشَ عليَّ فقد وجدت سبيلي ولكن اخشَ على نفسك لأنك ما زلت عبدًا لهؤلاء.

فقال له نصير متعجبًا: وجدت سبيلك؟ أتظن أنك بضعفك وغرورك هذين قادر على أن تهزم الآلهة، إنك لأنت الذي ضل سبيله.

وفي أثناء ذلك، دخلت زوجة توران إيشاهات فجأة وهما على تحاورهما فقال لها نصير: إن زوجك قد ترك ملة قومه لأجل ترهات في عقله.

فردت عليه: وكيف هذا؟

فقص عليها نصير ما قاله توران فردت عليه: إني خشيت عليك يا توران أن تعبث الأرواح الشريرة بعقلك وها قد فعلت.

فهب توران واقفًا قائلاً لكليهما: إني سليم العقل مُعاف غير أن النفوس البشرية لا تقبل رأيًا يخالف الإجماع على نقيضها.

فقاطعه نصير: لهذه الأسباب تركت عملك في معبد الآلهة.

فانتبهت إيشاهات لقوله هذا متفاجئة لعلمها متأخرة بهذا القرار وسائلة باستغراب من قراره هذا وعن عدم مصارحته لها به قائلة:

أتركت العمل في معبد الآلهة بعد هذا العمر الطويل ولم تخبرني! أبعد خدمتك لمعبد الآلهة تثور عليهم بآرائك وأفكارك تلك؟

فقال توران: رأيت أن لا جدوى من خدمتي لتلك الآلهة الصماء المزيفة، وإني قد وجدت سبيلي للخلاص الحقيقي. ثم وجه كلامه لصديقه نصير قائلاً: إني علمت ما لا تعلمون وما لا يمكن البوح به.

فوجه كلٌ منهما وجهه إلى غير ناحية وجه توران، وتنهدت زوجته وقالت: إذًا للأمر علاقة بذلك الكوخ وتلك المرأة، إنما هي روحٌ شريرة قد سيطرت عليك. وقال صديقه نصير: لك الحق في أن تختار ما تشاء وكل ما تبغيه وإن صداقتنا ستظل قائمة رغم كل عارض يعارضها، ولكني أحس بالخوف عليك من البوح بما تقول أمام الناس، فقد يظنوك عاصيًا محاربًا لمعتقدات الآباء والأجداد فيأذوك أو يضروك.

وأردفت زوجته مؤكدة: نعم هو ذلك.

فقال توران: لا تخافا إني لم أفقد رجاحة عقلي وتمييزي للأمور وإني على علم بأهل كل معتقد.

وبعد أن انصرف صديقه نصير وبعد أن قضى توران ليلته في أحضان زوجته، بدا متلهفًا للعودة إلى تلك الصخرة حاملة الأسرار ليعرف ما يزيد من معرفة وليعلم ما لم يكن يعلم من قبل.

****

وفي يومٍ آخر جميل تطفو فيه النسمات الطيبة على أنوف الناس بدأ توران يومه كعادته منذ طلوع الشمس بالعمل في الحقل ملكه خاصةً أنه في هذا اليوم يقوم بوضع البذور في حُفر بإلقاء بعضها ثم يهيل عليها من تراب الأرض بفأسه ويحفر أخرى ويفعل ذلك مرات كثيرة فهذا عمله وعمل الكادحين أمثاله من المزارعين، حتى إذا أدركه التعب من كثرة الانحناءات استراح قليلاً ثم يعاود لاستكمال ما بدأه في تلك القطعة من الأرض التي يبذر فيها وقطع أخرى قد بذر فيها من قبل يوم أو يومين وأخرى قبل ثلاث وأكثر، ثم بدأ بفتح القنوات لمرور الماء لسقاية ذلك الجزء الجديد المخصب من الحقل. حتى إذا انتصف النهار وأدركت الشمس كبد السماء أنهى عمله وعاد إلى بيته ليجد امرأته كعادتها تنشغل بواجباتها المنزلية وتعد لهما وجبة من الطعام لأجل الغداء فأكلا واستراحا. ثم بدأ في إعداد شراب نبيذ التمر لأن فيه تجارة ذات ربح وفير، فذهب توران إلى مخزنه بجوار بيته

وأخرج منه الأدوات والآنية وأحضر التمر الذي جمعه قبل يوم، وبدأ في إضافة الماء إلى التمر بنسبة الثلثين من الماء إلى الثلث من التمر هذا بعد أن عزل الفاسد من التمور وهرس الصالح المتبقي ثم قام بإحكام إغلاق الآنية وأخرجها وأعادها إلى مخزنه حتى تخمر، ثم أتى بآنية أخرى قام بتخميرها من قبل وفتحها وقام بتقليبها؛ لأن تقليبها أمر هام يتم يوميًا حتى يكون النبيذ صالحًا وذلك لمدة أسبوع على الأقل، ثم وضع الخمر الصالح من الآنية التي استوفت المدة في قوارير أخرى معدة لذلك بغرض المقايضة بها وجعلها جاهزة لأغراضها لأي وقت مقبل.

واستمر توران وزوجته في عملهما حتى أدبر النهار، ثم خرج توران وجلس أمام بيته يستريح ويفكر وينظر حوله إلى الأرض الخضراء النضرة وإلى الأشجار المثمرة والنخيل الباسقات في مواعيدها وكأن في إثمارها عيد يبث السعادة كل عام لكل مستطعم لثمارها بغير انقطاع؛ فمواسم كل أنواع الفاكهة دائمة طوال العام صيفًا وشتاءً منها ما يؤكل أو ما يشرب شرابها. ظل جالسًا يتأمل مغيب الشمس وتغاريد العصافير المستمرة فرحة بمبيتها بعد نهار طويل تقفز وتطير من شجرة إلى أخرى بحثًا عما يملأ جوفها ويشبع جوعها وظلت تلك الأصوات من تغريد العصافير وهديل الحمائم ونباح الكلاب عن بعد مع هبوب الريح قليلاً يستشعرها توران حينًا وهى تضرب وجهه حتى غشاه النعاس ونام وقد اختلطت تلك الأصوات جميعها في نومه، فرأى نفسه في المنام كأنه يطير في السماء مرتفعًا عن جو الأرض يجوب

الأنحاء وشعر أن بإمكانه فرد ذراعيه من أطراف أصابع يده اليمنى إلى أطراف أصابع يده اليسرى يحلق بباعه كيف يشاء وعندما أراد فعل ذلك فرد ذراعيه فرأى كأن له جناحين ثم أخذ يحلق بهما في فضاء السماء وذهب بعيدًا عن موقعه ووطنه الذي يعلمه ويسكنه، وظل طائرًا مسافرًا تملؤه الرغبة في اكتشاف كل جديد فكان يرى أناسًا يجتمعون عند بئر في قلب الصحراء يسقون لأنفسهم ولأنعامهم ثم ذهب أبعد من ذلك فرأى من مكانٍ آخر بئرًا مهجورة ليس فيها من يستسقي منها وبجوارها مسافة مسيرة ساعة من الزمن قصرًا منيفًا له سورٌ كبير وأعمدة عملاقة وقباب عالية محفوف بشجر كثيف من الصنوبر والكافور والغرقد ويقع ذلك القصر على طرف قرية صغيرة فوق هضبة مرتفعة.

فتساءل في نفسه: لمن هذا القصر؟ من يملكه؟ إنه لذو حظ عظيم.

فأجابه صوت يشبه صوته: إنه قصر أخيك «حوران».

فتعجب لهذا القول لعلمه بأن أخيه حوران قد مات في عالم آخر منذ عهد سحيق فاشتد انتباهه وأتته رغبة في رؤية أخيه، فاقترب إلى جدران هذا القصر وتعدى سوره وأخذ يطوف حوله ليعلم بساكنيه على أمل أن يرى أخيه كما أخبره الهاتف عن وجوده بهذا المكان ثم نظر إلى نوافذه حتى رآه بالفعل إنه أخيه حوران بلحمه ودمه وهو في هذا الوقت رجل بسن الخمسين تقريبًا هامته بيضاء واسعة

ذو لحيـة كثيفـة يرتـدي ثيابًـا باهظـة الثمـن. إنـه إذن مالـك هـذا القـصر وسـيده فـما إن رآه إلا قـال: «أخـي أخـي» فلـم يـدرك أنـه ليـس لـه صـوت فسـمع تـوران نفسـه كأنـه يصـدر صوتًـا كصـوت صفـير النسـور، فعلـم يقينًـا بـأن أخيـه حـوران لـن يسـمعه ولـن يـراه لطبيعـة مكانتـه طائـرًا وليـس إنسـانًا يـراه ويحـاوره، فرجـع طائـرًا مرفرفًـا إلى حيـث تلـك البـئر المهجـورة. وعندمـا اقـترب وعـزم أن يحـط عنـد البـئر نـزولاً مـن ارتفاعـه في جـو السـماء أدركتـه قدمـاه فوجـد نفسـه يمـشي كباقـي النـاس حتـى هبـط عـلى الأرض ونظـر إلى ذراعيـه فـإذا هـما تتحـولان مـن جناحـي نـسر إلى ذراعـين بشريتـين عاديتـين ونظـر تحـت قدميـه فوجـد نباتـات خـضراء وأخـرى مزهـرة فأمعـن النظـر إليهـا فوجـد مـن بينهـا نباتـات تشـبه نبـات السـدر. فقـال تـوران: «مـا شـأن تلـك النبتـة؟» فاقـترب إليهـا فوجدهـا نبتـة سـدر إلا أنهـا ليسـت مكتملـة النضـوج كباقـي النباتـات حولهـا وكان عليهـا جليـدًا أوقـف حركـة نموهـا فتعجـب تـوران مـن وجـود هـذه النبتـة في قلـب الصحـراء الحارقـة وليـس في مـكان يتسـاقط فيـه الجليـد وفاجئـه صـوت كصوتـه قائـلاً: «هنـا في مثـل هـذه البقعـة مـن الأرض ينتهـي ملـك مـردوخ».

اسـتيقظ تـوران مـن نومـه وقـد علـم يقينًـا بـأن مـا رآه في منامـه وقـت قيلولتـه كان حقًـا رؤيـا حـق معـبرة، وعلـم أن لـلأرض حـدودًا وعلامـاتٍ كالبـئر التـي يستسـقي منهـا النـاس والتـي تقـع ضمـن حـدود عـالم أرضي. وبالتماثـل، تقـع البـئر المهجـورة ضمـن حـدود عـالم آخـر وإن كانـت زوايـا الأرض التـي تجمعهـما وأبعادهـا واحـدة، ولكـن في مضمونهـا

عـوالم متوازيـة ظاهـرة وأخـرى باطنـة بالتماثـل تطـوق إحداهـما الأخـرى.

لقـد علـم تـوران أن أخيـه يحيـا في سـلام وطمأنينـة، وعلـم أيضًـا أن هنـاك أماكـن عـلى الأرض لا تصـل إليهـا يـد مـردوخ ومـن معـه وأمثلـة تلـك الأماكـن الصحـراء التـي لا تمطـر فيهـا السـماء وتحـرك الريـاح رمالهـا يمينًـا ويسـارًا بـلا هـدف أو نتيجـة ولا يسـتقر فيهـا مـاء ولا ينبـت فيهـا نبـات أو كأعـماق البحـار التـي لا تطلـع فيهـا شـمس ولا يُـرى فيهـا ضـوء ولا تظهـر فيهـا حيـاة، ولكنـه تسـاءل في داخـل نفسـه عـن كيفيـة وجـود أخيـه حيًـا في هـذا الزمـان وعـن سـبب سـكنه لهـذا القـصر بالـذات فكانـت هـذه الأسـئلة تـدور في ذهنـه ولم يجـد لهـا إجابـات وعلـم أن لا مجيـب لهـذه الأسـئلة إلا عنـد تلـك الصخـرة عنـد التقـاء النهريـن.

فمكـث في بيتـه تلـك الليلـة مسـتعجلاً انتهائهـا ومنتظـرًا ليـوم جديـد حتـى يذهـب إلى تلـك الصخـرة وبـات ليلتـه وأصبـح في يـوم آخـر وقـد مـضى نهـار يومـه هـذا سريعًـا وبعـد فراغـه مـن اشـتغاله في الحقـل عـزم عـلى الذهـاب إلى حيـث ينـوي. وعنـد وصولـه جلـس عـلى الصخـرة ونظـر إلى صفحـة المـاء بتركيـز شـديد وذهـن صـافٍ فـرأى نفسـه وأخيـه حـوران في ذلـك العـالم القديـم الفـاني وهـما صبيـان يلعبـان بالأحجـار وكان في يديـه حجـران مدببـان يحـك بعضهـما بعضًـا فوجـد كأن شـيئًا نتـج عـن الحكـة فكانـت شرارة مـن نـار خرجـت منهـما فخـاف تـوران ورماهـما لأنـه لم يكـن لـيرى مثـل تلـك الأشـياء في عالمـه القديـم، وفي مشـهد آخـر رأى نفسـه يكـرر نفـس هـذا الفعـل وهـو شـاب يافـع ثـم رأى نفسـه يجمـع بقايـا أغصـان

شجر يابسة ثم يفعل ذلك الأمر مجددًا فالتقطت الأليافُ اليابسة شرارة الحكة فاشتعلت بها النار وأخذ يضيف إلى تلك النيران الموقدة الأغصان اليابسة حتى لا تنطفئ مرة أخرى وقد حاول مرات عديدة أن يبقيها مشتعلة فقد كانت تخبو فيزيدها وقودًا من أخشاب الأشجار حتى أضرمت نارًا لا تخبو ولا تنطفئ.

فرآه أخاه وهو قادم إليه فتعجب عن طبيعة هذا الشيء وتساءل عنها فهي شيء غير معروف وليس بمعلوم في هذا العالم ثم مد توران يده إليها فأحس بوجع وأشار إلى أخيه بالابتعاد عنها، ثم أمسك بغصن تأكله النار وذهب إلى حيث يمكث قومه، فلما رأوه ممسكًا بتلك الجذوة عجبوا لأمرها عجبًا كبيرًا وخاف منها أشخاص أكثر ثم وجدوا أن لتلك النار فوائد كثيرة فيما بعد فأسموها باسم مكتشفها وعبدها من بعده أناس من قومه وكانوا يقسمون إذا أرادوا القسم بقول:

«ونار توران أصدقك».

فكان له شأنًا عظيمًا في قبيلته حال حياته وبعد مماته.

وهنا أدرك توران وهو جالس على تلك الصخرة أن هذه الفعلة كانت السبب في تغيير مجرى حياته الأولى بل ومن بعد موته أيضًا وأن هذا هو الفعل الذي كانت تشير إليه حليلة في حوارها إليه آخر مرة لقاها فيها، وأن قومه قدسوه من بعد موته لأجل ذلك السبب وقد كانوا يرددون أنه هو رب النار وخالقها مما كان لذلك أثر

لـدى الآلهـة وكبيرهـم مـردوخ وأنـه ارتقـى إلى مصـاف الآلهـة بحكـة مـن حجريـن صـوان نادريـن مـما دفـع مـردوخ إلى أن يُسـكِنه هيـكل الأربـاب ليكيـد ويدبـر أمـورًا سـيعلمها تـوران ويتذكـر أحداثهـا فيـما بعـد.

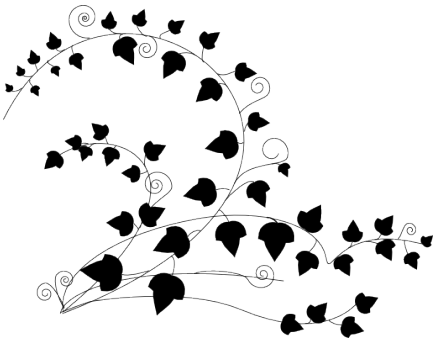

توران في هيكل الأرباب

وبعد أن تكدست الرؤى والذكريات في وجدان توران بحيث انتظمت مع بعضها البعض وأفرزت الكثير من العلم والمعرفة التي بدأت في تاريخ قصته كمزارع بسيط يسكن أرض شنعار في بابل القديمة واختلاف الأحداث التي أدت إلى تغيير حاد في مسار حياته منذ رؤيته لحليلة التي تبين له فيما بعد أنها من أهل السماء وقد ظن بها خطأ أنها جنية مخادعة تريد إغوائه أو أسره بأسر شرير فأكدت له تلك الذكريات المجمعة والأحداث التي تلتها أنها كانت رفيقته في هيكل الأرباب وأنه هو نفسه كان ربًا معبودًا يسكن في هذا الهيكل في السموات وأنه في حياته في هذه الدنيا يعتبر كنصف إله ولم يكن يعلم ذلك بداية.

كان توران لديه حياة أخرى كاملة قبل مجيئه إلى هذا العالم تذكر فيها والديه وأخيه حيث كانوا يسكنون أرضًا منسية من أراضي الظلمات لا يضاء إلا النار فيها وكان يسكنها قبائل الحن والبن وهي مبتدأ وجود توران وفيها قام باستيقاد النار لأول مرة مما جعله مقدسًا فيها فيما بعد. وبدأ في حياته هذه يدلي ويبوح بأقوال عما يحدث له لصديقه نصير الذي كان يحاول أن يقوم بدور الصديق الحسن حال ما يحدث مع صديقه وأيضًا لزوجته إيشاهات التي تشهد معه الأحداث وبدأت تظنه فاقدًا لصوابه.

ثم بدأ توران يتكتم على أسراره التي ظهرت له فجأة بأمر من حليلة رفيقته السابقة في السماء لكنه بدأ بتذكر الفعل الذي فعله وقد أصبح به ربًا معبودًا على أثره وهي الواقعة التي جعلته صاحب فضل عظيم في هذا العالم آنذاك. تكتم على هذا السر الذي كان سببًا للخير لبني جنسه؛ ذلك الخير الذي يتركز في إيقاد نار وسط ذلك العالم الظلامي مما جعل لبني جنسه نورًا ماديًا على مدى أحقاب كثيرة ودفع الآلهة إلى رفعه إليهم بعد أن كان من الموتى ومؤانستهم حتى لا يكون لهم عدوًا وينفرد بعالمه الذي ينتمي إليه وليعلن كبير الآلهة سيطرته على هذا الجزء من الكون ذي الأبواب التسع.

كما تكتم توران بشأن حليلة التي ساعدته على التذكر الكامل لكل هذه الذكريات بأنها كانت هدية من الآلهة الكبر إلى توران كرفيقة تؤنسه في موضعه بهيكل الأرباب كما يتذكر تغير طبيعته وتغير مادته بعد رفعه إلى مصاف الآلهة.

وازداد توران علمًا بحقيقة ما حوله وبأن الأبواب التسع هي لتسعة عوالم متوازية ومتطابقة فوق بعضها البعض وكأنها غرفات داخل طوابق متراكبة في مبنى واحد، وهذه الأبواب عليها حراس ينظمون عمليتي الولوج والعروج وتخضع الأبواب وحراسها لسيطرة مردوخ كبير الآلهة وبعلمه وبإشراف ملائكته.

تلك هي حقيقة توران الذي يعيش حياة طبيعية كأي إنسان عادى في بابل القديمة يقوم بعمله في رعاية معبد الأرباب والزراعة

في موسمها، ولكنه في الحقيقة ليس إنسانًا عاديًا فهناك أشياء تحدث معه منذ طفولته ترهص له على ذلك، كما أنه كان يرى في منامه رؤى متكررة عن أماكن وأشخاص كأنه يعرفهم ووقائع يشعر كأنها وقعت له أو شاهدها بالفعل.

بدايةً، لم يلق توران بالاً لهذا كله في فترة شبابه حتى اشتد عليه الأمر وزاد تدريجيًا عندما تعرف على امرأة تدعى إيشاهات فأعجب بها إعجابًا شديدًا وأراد الزواج منها إلا أن حقيقة كونه لقيطًا كانت تقف عائقًا أمام ذلك. ولكن إيشاهات عبرت عن حبها إلى توران ورغبتها في الزواج منه أمام أهلها وقالت إن هذا السبب لن يقف عائقًا أمام حبهما وأنها تريد إنجاب الأطفال منه، وبالفعل تم زواجهما بعد فترة من المماطلة والتأخير في الرد على طلبه ومرت سنوات كثيرة على زواجهما السعيد غير أنه لم يثمر عن أطفال مما جاش في نفسيهما أوجاعًا كلما تردد ذكر تأخر الإنجاب.

ثم يشاهد توران رؤى منامية عن أحداث تقع له في الواقع كما رآها بالضبط مما جعله يهتم أكثر فأكثر ليجد تفسيرًا لما يحدث له كما يتذكر توران أشياءً كثيرة وهو في عالم الإنس عن عالم آخر قديم عبر الرؤى والأحلام. وكان لقاؤه مع حليلة ومقابلتها عند ضفة النهر في الليالي المحاقية بمثابة التغيير الحقيقي في أفكاره ومعتقداته بعد أن تذكر أشياء حدثت له في الماضي وتوالت الذكريات والمفاجآت وهو يستقبلها بذهول وآلام، وأهم تلك الرؤى والذكريات المتدفقة إلى ذهن

تـوران عـن ماضيـه هـي صعـوده إلى السـماء وبالتحديـد إلى هيـكل الأرباب.

وفي مشـهد قديـم في عـالم تحـت أرضي منـذ عهـد سـحيق كان آخـر مـا يتذكـره تـوران هـو قلقـه الشـديد حيـال أخيـه حـوران فقـد اشـتد عليـه مرضـه وأوجعتـه أسـقامه أوجاعًـا شـديدة وكان إذا غـاب عنـه شـقيقه الوحيـد ظـل يطلبـه ويذكـر اسـمه كثـيرًا وهـو عـلى فـراش المـوت.

كانـت قبائـل الجـن لا تـزال تغـير عـلى قبائـل الـبن المسـالمين أولئـك الكائنـات المتوحشـة بشـعة الخلقـة ذوات الأرجـل القصـيرة والأنيـاب الكبـيرة والمخالـب الحـادة والشـعر الكثيـف مـا زالـوا يتعرضـون بـالأذى والوحشـية لجنـس قبيلـة تـوران الـذي يـزداد ألمـه أكـثر فأكـثر وهـو يصـارع المـوت وكان أكـثر مـا يوجعـه ليـس فكـرة المـوت ولكـن تركـه لأخيـه وحـده في هـذا العـالم القـاسي إلى أن ذهـب برحلتـه في عـالم الفنـاء حيـث الأمـوات يسـبتون في قبورهـم ولا يتذكـر تـوران غـير مخـاوف مسـيطرة عليـه ولا يـدرك أيـن ومتـى هـو كائـن كحـال كل ميـت، لكنـه إذ فجـأة اسـترد وعيـه وفتـح عينيـه وأبـصر السـماء الزرقـاء وأحـس أنـه كمـن كان راكضًـا في الطـين، وأخـذ شـهيقًا كبـيرًا كمـن كاد أن يدركـه الغـرق في بحـر عميـق، وأحـس بيديـن تطبقـان عليـه كالـذي تـم انتشـاله مـن عمـق جـب مظلـم.

«لقد عدت إلى الحياة» هكذا قال توران.

فنظـر إلى يمينـه فوجـد كائنًـا أبيـض اللـون لـه عينـان سـوداوان بـلا جفـون أو رمـوش أو شـعر ووجهـه بـلا أنـف ولـه أذنـان صغـيران وعليـه زيًـا غريبًـا عـن معرفـة تـوران ولـه ذراعـان ضئيـلان وجناحـان كبـيران، ولم

يكـن تـوران يعلـم مـا هـذا الكائـن فنظـر إليـه وعينيـه زائغتـان فظـل يتفحصـه ليـدرك ماهيتـه ثـم ينظـر إلى نفسـه فوجـد جسـده عاريًـا فيعـاود التحديـق بـه ثـم يبتعـد عنـه قليـلاً وهـو عـلى حـذر منـه، فبـادره ذلـك المخلـوق قائـلاً: السـلام عليـك سـيدي تـوران لا توجـل فأنـا ملـك مسـخر مـن ملائكـة مـردوخ العظيـم رب الأربـاب.

فلـم يـرد عليـه تـوران وظـل ناظـرًا إليـه بصمـت حـذر فتابـع المـلاك قائـلاً:

لقـد بعثنـي إليـك قـدوس عـرش السـماوات كبـير الآلهـة الأعظـم مـردوخ لأحييـك مـن المـوت.

فـرد عليـه تـوران متفاجئًـا: مـردوخ! ومـن مـردوخ هـذا أنـا لم أسـمع عنـه مـن قبـل وكيـف يكـون لـك القـدرة عـلى إحيـاء المـوتى؟

فقـال لـه المـلاك: لقـد اختـارك مـردوخ الجبـار لصحبتـه في هيـكل الأربـاب.

وسأله توران: كم مر على موتي؟

فأجابـه: قرابـة ثلاثمائـة ونيـف مـن الأعـوام. ثـم نظـر إلى السـماء وسـأل المـلاك: متـى أصبحـت السـماء بهـذا اللـون؟

فأمسـك المـلاك بإبطـي تـوران وارتفـع بـه في السـماء وطـار بـه في الهـواء ودار بـه دائـرة كاملـة ثـم ركـز المـلاك بـصره نحـو نقطـة معينـة بمركـز تلـك الدائـرة وولجـا فيهـا ثـم تغـير كل شيء.

رأى توران ذلك الملاك الطائر قد صار رجلاً عاديًا مشابهًا لبني جنسه ورأى نفسه مرتديًا لهذا الزي الغريب ورأى السماء قد تغيرت تغيرًا كاملاً وكأنها فضة براقة ونظر إلى الأرض من تحت قدميه فوجدها بيضاء، ونظر عن يمينه ويساره فوجدها لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ثم وجدا أمامهما سلمًا قرمزيًا براقًا قد أزلف إليهما فأمسك الملاك بيد توران وصعدا هذا السلم فكان سلمًا طويلاً ذا درجات كثيرة يعلوه الضباب فلا يرى نهايته حتى إذا وصلا إلى العلو المعلوم رفع توران رأسه فوجد نفسه داخل بناء عظيم ضخم لم يرى له مثيلاً قط فيه أصوات حسنة تعطي الإحساس بالراحة والسكينة ولم يكن يعلم شيئًا عن الموسيقى وأصوات أخرى مسبحة ذاكرة لمردوخ مصاحبة للترانيم الموسيقية ولم يكن يسمع مثلها أبدًا، فنظر توران ناحية الملاك صاحبه وقال له: أين أنا؟

فقال له: أنت الآن في هيكل الأرباب.. مرحبًا بك ومبارك معًا.

ثم توجه الملاك نحو باب ذهبي عملاق وخر ساجدًا وداعيًا لإلهه مردوخ ثم توجه إلى توران وطالبه بقوله:

عليك أن تفعل مثلما أفعل تمامًا.

فطأطأ رأسه موافقًا، وسجدا نحو ذلك الباب الذهبي ثم انفتح الباب أثناء سجودهما وكان له صرير فهب الملاك واقفًا وأخذ بيد توران ليتبعه عبر ذلك الباب، فلقيهما رجلٌ عظيم فانحنى له الملاك وتبعه توران باحترام، وقال بصوت حسن لتوران: مرحبًا بك.

فـرد عليـه بمثـل مـا قـال، ثـم قـال لـه: سـأعرفك بنفـسي أنـا «محاقيل» كبـير ملائكـة مـردوخ العظيـم، ثـم قـال لـه: أتـود أنـت تعلـم لمـاذا أنـت هنـا؟

فـرد عليـه: بـلى، ثـم قـال لـه محاقيـل: إنـك الآن واحـد مثلنـا فلقـد كرمـك مـردوخ العظيـم بارتقـاءك إلينـا هنـا في هيـكل الأربـاب.

فـرد عليـه تـوران: لقـد تشرفـت بذلـك، ثـم انحنـى الملـاك المصاحـب وتـوران ثـم أنهـى محاقيـل اللقـاء قائـلاً: مبـارك معًـا.

فـرددا ذات القـول: مبـارك معًـا، ثـم سـأل تـوران الملـاك المصاحـب بعـد أن انتهـى ذلـك اللقـاء القصـير: هـل لي أن أرى مـردوخ وأقابلـه؟

فـرد عليـه الملـك: ليـس كل مـن هنـا يـرى مـردوخ العظيـم ولا يـراه إلا مـن أراد لـه مـردوخ ذلـك فيتـشرف برؤيـاه العظيمـة ويتجـلى قدسـه عليـه.

فرد توران: نعم فهمت، ثم أردف الملك قائلاً:

لـكي تعلـم إن لـك هـا هنـا حيـاة الخلـود فـلا تفنـى أبـدًا ولقـد تغـيرت مادتـك فـلا تكـون كـما كنـت قبـل المـوت أبـدًا وأخـيرًا لا تفكـر في أمـر قـد يغضـب مـردوخ الجبـار وإلا علمـه قبـل أن تفكـر في أدائـه وإلا صرت مـن المغضـوب عليهـم وتسـقط مـن السـماء وتهبـط مـما أنـت فيـه.

فـرد تـوران: لا أقـدر أن أفكـر في إغضـاب مـردوخ العظيـم ولكـن مـا الـذي قـد يغضـب مـردوخ العظيـم؟

فـرد عليـه الملـك: التكـبر والتعـالي والتفاخـر وعـدم الطاعـة أو التمـرد

عـلى أمـر مـن أوامـره فالجميـع هنـا ملتزمـون بذلـك.

ثـم اصطحـب المـلاك صاحبـه تـوران إلى حيـث مكانـه في هيـكل الأربـاب.

****

وفي مشـهدٍ آخـر يطأطـأ محاقيـل رأسـه وهـو قائـل: سـيدي مـردوخ لقـد فعلنـا مـا أمرتنـا بـه، فـرد عليـه صـوت قـوى هـو صـوت مـردوخ:

«حسـنًا فعلـت، والآن أرسـل عبدنـا «زار» إلى ذلـك العـالم الـذي يُقـدس فيـه تـوران الملعون».

فرد عليه محاقيل: سمعًا وطاعة سيدي مردوخ العظيم.

محفل الأرباب

«إنه لمقامٍ عالٍ»

هكذا قال توران في سريرته معجبًا وفخورًا حينما نظر إلى مكانه لأول مرة ثم تفحص مكانه في هيكل الأرباب بانبهار ووجده عبارة عن زخرفٍ من ذهب وفضة وعاج يعلوه سقف كأن نورًا يشع من عاليه ولا يعلم مصدره ثم ألقى نظرة إلى مضجعه فكانت أسرة مرتفعة مادتها من الذهب البراق تجذب العين وبجوارها آنية من الفضة المطعمة بالجواهر ووجد أيضًا قوارير من فضة وألماس شاع بريقها في المكان ثم نظر إلى الجدار فرأى كأن أحدًا ينظر إليه فخشي على نفسه إذ كلما قام بحركة تحرك هذا الشخص بنفس حركاته ولم يكن له علم من قبل بالمرآة فكانت هذه هي أول علم له بها فكانت أول مرة يرى فيها مثل تلك الأشياء ثم علم أنه هو نفسه من يظهر انعكاسه بها، فقال وعلى وجهه ابتسامة اندهاش مختلطة بسعادة: إنه لشيء عظيم.

ثم التفت إلى جدار آخر فوجد مرآة أخرى لكنها لا تظهر له انعكاس صورته فيها فأمعن النظر فيها وحرك يده تجاهها فظهرت له صور لأشخاص آخرين في أماكن مختلفة وفي حالات مختلفة فوجد فيما رآه أناسًا يتقاتلون فيما بدى له أنها معركة ما بين قبيلتين بدائيتين

ثم حرك يده فأتاه منظر آخر شاهد فيه قردة على أشجار لا تتوقف عن الصراخ والشجار فيما بينها، ثم أراد أن يعلم بما يحدث من أحداث بعد ذلك فوجد أناسًا عمالقة الحجم يشيدون أبنية ضخمة ذات أعمدة وينحتون تماثيلاً عملاقة أعلى الهضاب والمرتفعات ويبنون أشياءً ذات قواعد عريضة وأسطح حادة ولم يكن توران يعلم ما هذه الأشياء ووجدهم يشكلون بالنحت قطعا من الصخور ويضعونها أعلى أودية عميقة جدًا فإذا بتلك القطع الصخرية المنحوتة تطفو على الهواء وتتحرك في هذا الوادي ويركبونها ويتحركون بها في الوادي كمن يمتطي فرسه فتذهب بهم إلى مقاصدهم ووجدهم يمسكون حجارة غريبة الشكل ويضعونها في مكان مظلم فإذا بها تضئ ذلك المكان عند وضعها في موضع معين فتعجب توران لهذه الأشياء ثم وجدهم إذ فجأة قد جاءتهم رياح سوداء شديدة ذات أمطار غزيرة يتطاير منها الناس فماتوا جميعًا وعلم بأن تلك كانت نهايتهم ونهاية حضارتهم العظيمة.

علم توران بأنه يمكنه أن يرى ما يريد عبر تلك المرآة العجيبة وأن يعلم من الأخبار والأحوال ما يثري معرفته وكان يحرك بيده يمينًا ويسارًا ليغير رؤيته لمن يريد أن يراه وأدرك أنه إذا أراد أن يرى شخصًا معينًا بذاته فيكفيه أن يفكر فيه أولاً وفي أي وقت من حياته فيراه ويسمعه ويشاهد ما قد فعله في أي زمان سواء كان حاضرًا أو ماضيًا فعلم أنه أمام كنز كبير من العلم والمعرفة.

ثـم قـال بصـوتٍ مرتفـع مندهشًـا وعينـاه ملتمعتـان: إنـه لسـحر عظيـم.

وأثنـاء انشـغاله بتلـك الأشـياء العجيبـة إذا بطـارق يطـرق بابـه وبنـداء هامـس غامـض لاسـمه يقـول لـه: افتـح لي البـاب سـيدي تـوران... ففتحـه ووجـد رجـلاً حسـن المظهـر أمامـه فسـلم عليـه وألقـى المباركـة وسـأله تـوران عـن نفسـه فأجابـه قائـلاً:

أنـا ملـك مرسـل إليـك مـن قبـل مـردوخ العظيـم أدعـوك إلى لقـاء الأربـاب في حفـل اسـتقبال لـك.

فرد عليه توران: حسنًا ومتى هذا اللقاء؟

فرد عليه: مع اكتمال الناموس للأرباب.

فقال سائلاً: وكيف ذلك؟

فـرد عليـه: يكـون ذلـك باكتـمال نـور أرواح الأربـاب وانسـجامها مـع النجـوم والكواكـب.

فأبدى توران عدم فهمه لما قيل له، فأردف قائلاً:

لا يوجـد زمـن هـا هنـا إنمـا الأمـر يتـم بنيـة تواجـد الجميـع في محفـل الأربـاب حـين يعزمـون عـلى ذلـك فيكـون مـا يريـدون فهـل عزمـت؟

فقال له: أنا عازم إذًا.

فـرد عليـه المـلاك: فسـتجد نفسـك بإرادتـك داخـل المحفـل بالوقـوف ثابتًـا في مكانـك. وبالفعـل وجـد تـوران نفسـه داخـل مـا يشـبه حجـرة

ضخمة لها باب ذهبي عظيم واقفًا وخلفه كرسي بين كراسي كثيرة وبجواره عدة أشخاص حسنو المظهر والطلعة يقفون أيضًا وخلفهم كراسيهم فأدرك أنه في محفل الأرباب وأنه عمليًا قد صار واحدًا منهم إذ أنه باستطاعته أن يدرك نفسه فيوجدها في أي مكان يريده فيكون فيه بإرادته الحرة وبمجرد التفكير فيه إذ قد تغيرت مادته وصار بمقدوره فعل الأشياء التي يحلو له فعلها ووجوده في أي مكان بمجرد رغبته في ذلك دون معاقب أو محاسب.

ثم نظر توران إلى حيث الأماكن الفارغة وهي تكتمل وجلس بعد أن رأى أقرانه يجلسون حتى إذا اكتملت وحضر الجميع أبصر نورًا شديدًا يشع في المكان يكاد لا يبصر من شدته فهب الجميع واقفين وكذلك توران تبعهم واقفًا وانحنى الحاضرون من الملائكة قائلين في صوت واحد «السلام على مردوخ العظيم».

فرد عليهم بضخامة صوته: «السلام والبركات والنعيم الذي لا يفنى».

فردوا قائلين: «الشكر لك والفضل لك والخير كله منك».

فردد توران تلك الكلمات مع الباقين أسوة بما قاله الأرباب والملائكة الحاضرون، ثم نظر فوجد كأن ينبوع ماء في وسط المكان قد تفجر وسمع صوت كصوت رعد عظيم وأبصر كأن دخانًا كثيفًا يظهر منه رجل عظيم الهيئة لا مثيل له من بين الحاضرين وأيقن توران أنه مردوخ بذاته، ثم فاجئه مردوخ بالنظر إليه محدقًا، فارتعد توران وأوجس في نفسه الخوف رغم تماسكه لكن مردوخ قابله بابتسامة ثم

حـول نظـره إلى الآخريـن، وقـال لهـم:

إننـا هـا هنـا في محفـل الأربـاب عنـد اكتـمال النامـوس لنرحـب بوافـد جديـد إلينـا ألا وهـو كـما علمتـم السـيد تـوران الكريـم فلنبلغـه السـلام والـبركات والنعيـم الـذي لا يفنـى.

فرددوا جميعًا تلك العبارة، ثم قال مردوخ: مبارك معًا وإلى الأبد.

فقالوا: مبارك معًا وإلى الأبد.

ثـم وجـه مـردوخ حديثـه إلى تـوران: إن لـك هنـا ناموسًـا كبـيرًا عليـك تعلـم الكثـير حتـى تـدرك مكانـك ومقامـك في هيـكل الأربـاب، وإن لـك عنـدي هديـة فأنـا قـد منحـت لـك رفيقـة معـك لتؤنسـك في مكانـك داخـل هيـكل الأربـاب.

ثـم انفتـح البـاب الذهبـي الكبـير ودخلـت منـه امـرأة جميلـة المظهـر حسـنة الثيـاب منحنيـة لحـضرة مـردوخ.

فقـال مـردوخ لتـوران إن حليلـة سـتكون رفيقتـك هنـا في الهيـكل تهانينـا لـك.

وردد الجميع: تهانينا لك.

ثـم ذهـب الجميـع إلى أماكنهـم بعـد إنهـاء المحفـل وبمجـرد أن أنهـى مـردوخ ترحيبـه وجـزاه بهديـة لـه، سـطع النـور سـطوعًا شـديدًا وأنهـى تـوران محفلـه وعـاد إلى مكانـه مـن بعـد مـردوخ كبـير الآلهـة وبالتوافـق مـع الأربـاب الآخريـن، ولكنـه ليـس وحيـدًا هـذه المـرة.

إن السمع لا يفنى

لم يشعر توران خلال فترة مكوثه في هيكل الأرباب بالوحدة فكانت برفقته حليلة التي رآها أول مرة عندما أهداها له مردوخ فما إن أبصرها حتى وقع في نفسه حبها؛ فهي امرأة في غاية الجمال لم يكن ليرى في عالمه امرأة في مثل جمالها وحسن طلعتها فما أن تواجدا في مخدعهما إلا كان يتملقها بشدة ولم يغض عنها الطرف ولو للحظة واحدة وكانت نظرات كل واحد منهما إلى الآخر كمرج اللهيب الدافئ فتقدمت إليه قائلة:

سيدي توران أنا تحت أمرك وطوعك، فابتسم إليها وذهبا في عالم اللذات أوقاتًا كثيرة فلم يكن ليعكر صفاء رغباتهما أو ينقض نشوتهما أحد. قضيا توران وحليلة معًا أوقاتًا ممتعة في كل مكان يتخيلانه بمجرد التفكير والعزم على الوجود فيه لا يمنعهما مانع ولا يراقبهما رقيب ولا يوقفهما إلا ارتشاف الرحيق فهما خالدان كسائر من في هيكل الأرباب الذي لا إرهاق فيه ولا نوم أو جوع ولا حزن فالجميع هنا منهمك في الملذات اللامتناهية والتمتع بالسعادة الأبدية.

****

وذات مرة قال توران لحليلة:

إن ما يحدث لي ما كنت لأحلم به ولو تمنيته ما كنت لأصل لهذا في أقصى أماني.

فقالت له حليلة: سيدي توران إنه لشرف عظيم لي أن أكون رفيقتك.

ثم قال لها: إن أكثر ما يشغل بالي هو سبب إحيائي من الموت ورفعي إلى السماء وسكني في هيكل الأرباب، هل تعلمين لما فعل مردوخ العظيم ذلك؟

فردت عليه: سيدي ... إن كرم مردوخ العظيم لا حدود له ولا مانع عنه وإنك سيد العالم الذي كنت تحيا فيه وإن لك ذكر فيه مقدسًا لهذا رفعك مردوخ إليه، ألم يمر على موتك في عالمك ألف سنة فأكثر؟

فاندهش توران وقال ناكرًا: كلا، بل مر حوالي ثلاثمائة عام فقط على موتي بميقات العالم الذي كنت أحيا فيه.

فتعجبت حليلة وقالت: كيف ذلك إنه ليس بالوقت اللازم لتنمو شجرة حياتك في كوة الزمن.

فقال لها مستفسرًا: وما هي شجرة حياتي؟

فقالت مجيبة لسؤاله: إن لكل رب من الأرباب شجرة حياة لا تؤتي ثمارها النورانية إلا بعد ألف عام على تقديسهم حتى يكون لهم الأبدية في هيكل الأرباب.

فرد عليها: معنى هذا أني لست مهيئًا بعد للمكوث في هيكل الأرباب إلى الأبد.

فقاطعته حليلة: ربما أراد مردوخ تكريمك بإحيائك من الموت حتى قبل أن يمر الوقت المطلوب لوجودك هنا كما فعل مع باقي الأرباب إذ أنهم جميعًا أحباء مردوخ وصحابته، فهذا دليل على حبه لك.

فصمت قليلاً عن غير اقتناع، ثم سألته حليلة:

ألا تسمع الآن حين تركز بانتباه أصوات الذاكرين والمقدسين لاسمك.

فقال لها: أكاد أسمع أصواتًا خافتة لكن منذ مكوثي في الهيكل يقل عدد الأصوات الخافتة ولا يزداد.

فقالت: هذا غريب كان يجب بعد مرور كل هذا الوقت في ميقات عالمك الذي بلغ أكثر من ثلاثمائة عام أن تكون أحاديث تلك الأصوات مشجية داخل نفسك لكثرتها.

ثم استطردت قائلة: عليك أن تعلم أن السمع لا يفنى أبدًا، ذلك أن أصوات الذاكرين والعابدين لك كانت لتوقظك من موتك بعد مرور ألف سنة من بداية تقديسهم وعبادتهم لك لأن الألف سنة في ميقات كل عالم من القداسة هي الفترة الواجبة لكي تنمو فيها شجرة حياتك الأبدية، ولولا تدخل مردوخ العظيم لكنت إله وحدك لعالمك الذي كنت تحيا فيه وتنتسب إليه.

فوقع صدى تلك الكلمات التي تلقاها على مسامعه من حليلة وظلت تتردد في ذهنه ثم قالت له مقاطعة لأفكاره: إن مردوخ اتخذ من أحبائه أربابًا ليمكثوا معه في هيكل الأرباب وجعل لهم ذكرًا

وتقديسًا ربما هذا هو ما أراده لك مردوخ العظيم، ولم يحدث أن نفى أحدًا منهم أو سقط من السماء غاضبًا على أحدٍ منهم من قبل إذ أن الجميع راضون بنعمة مردوخ عليهم وذاكرون لفضله غير ناسين ولا منكرين له. وربما أراد مردوخ العظيم أن يوحد الصف حتى لا يحدث تعارض أو خلاف ولا تنس ولا تغفل أنك في هيكل الأرباب بنعمة مردوخ وإرادته، وأن مكوثك هنا أيضًا مرتبط بنعمة مردوخ وإرادته.

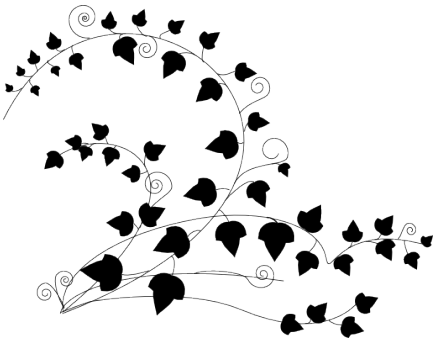

أخ الناس الخفي

كان أكثر ما يشغل توران في مقامه بهيكل الأرباب هو المتابعة والمراقبة عبر مرآة الزمن التي كان يرى من خلالها ويشاهد أحداث لأشخاص عبر العوالم المختلفة يستطيع بها أن يقف على كافة المعلومات المرتبطة لهذا الشخص أو لذاك وأيضًا المعلومات اللازمة للوقوف على حقيقته أو الهدف من إحداثها وكانت الوسيلة للوصول إلى تلك المعرفة عبر مرآة الزمن - والتي يعلمها الأرباب وملائكة مردوخ- هي تلك الومضات التي تومض وقد يبصرها الشخص أو الأشخاص المسجلة لهم تلك الأحداث وقد لا يبصرونها أو لا ينتبه إليها أحد فهذا التسجيل الحي عبر تلك الومضات هي أسلوب ووسيلة رؤية ومعرفة الشخص المتتبع والإحاطة بأحوال حياته. ومن خلال هذه الأداة النورانية يحيط الأرباب علمًا بأتباعهم ومواليهم وأيضًا من كانوا غير ذلك وحتى الدواب والطير ويمكن لهم مجازاتهم سواء بالثواب أو العقاب إن كانوا مخطئين.

وهكذا تتبع توران قصص لعديد من الأشخاص ونال علمًا وافرًا لكثير من الأشياء ثم نوى معرفة كيفية إحياء الموتى إذ أنه هو الأصل الذي يبنى عليه الاختلاف ما بين أهل السماء عن أهل العوالم الأرضية؛ فأهل الأراضين هم عبيد لا يملكون المقدرة على البقاء خالدين

فيعتريهم العجز والمرض حتى لو كانت إرادتهم على عكس ذلك وعلى المثل أيضًا فهم لا يقدرون على منع الموت من أخذ أرواحهم وأرواح أحبائهم وأقاربهم ولو قدروا ما كان هناك ذلك الفارق.

وكان من الأشخاص الذين تتبعهم توران أخيه حوران الذي كان دائم الانشغال به قبل موته وكان يذكره وقت احتضاره وحتى سكرات موته خوفًا عليه من تركه وحيدًا في ذلك العالم الفاني فكان ينظر إليه بحنو وشوق كبيرين عبر تلك المرآة الزمنية ويتذكر أحوالهما وأفعالهما معًا حتى قاطعته عن التطلع والمشاهدة رفيقته حليلة فسألته عمن هو به مشغول ويتابعه بهذا الشغف والتطلع الكبير قائلة:

من هذا ذو الحظ العظيم بهذه المتابعة من السيد توران؟

فرد عليها: هذا أخي حوران.

فقالت له: أتحبه كل هذا الحب؟

فرد عليها وهو ما زال يتابعه: أجل وأكثر مما تعتقدين فهو شريك حياتي وأخي الوحيد لقد قضينا أوقاتًا كثيرة معًا وقد تعهدت أن أحافظ عليه وأن أرعاه رعاية كاملة بعد أن قضى أبوانا نحبهما وتركانا صغيرين في ذلك العالم الموحش.

وكان توران ينظر إليه بحنان حزين عبر تلك المرآة الزمنية حينما كان يفارق الحياة من بعده بزمن ليس بقليل.

ثم سألته حليلة قائلة:

أتريـد أن تعـرف حالـه الآن في بـرزخ المـوتى إن كان في موتـه سـامدًا في سـعادة أم في توحـش؟

فرد عليها وهو لا ينفك عن مشاهدة أخيه: بلى وكيف ذلك؟

فأرشـدته قائلـة: عـبر تلـك المـرآة أيضًـا، ليـس عليـك إلا أن تفكـر وتشـغل ذهنـك بالكامـل في حالتـه الآن وسـتراها بـأم عينيـك.

فلـما عـزم عـلى ذلـك رأى أخيـه تـارة في منـام سـعيد وتـارة أخـرى في توحـش مـن خـوف أو ألم فحالتـه مماثلـة لحـال كل نائـم.

ثم سأل توران حليلة عن كيفية إحياء الأموات، فقالت له:

أتريد أن تبعث أخيك من الموت، فهز رأسه قائلاً: بلى.

فـردت عليـه مجيبـة: إن هـذا الأمـر لا يحـدث كثـيرًا في هيـكل الأربـاب ولكـن إذا أردت فـلا تكـثر منـه ولا تحيـي أحـدًا مـن أتبـاع الأربـاب الآخريـن مـن المـوت فذلـك تعـدي عـلى شـؤونهم فكـن عـلى حـذر، ثـم تابعـت: عليـك بالتفكـير العميـق في الشـخص الـذي تريـد إحيـاءه مـن المـوت حتـى ترتبـط روحيكـما ببعـض وتتحـدا وتنظـر إلى عينيـه بمـرآة روحـك وتمـد يدك مخلصًـا لـه مـن المـوت وتدعـوه باسـمه وسـتجد أن سـبابتك قـد نفـذت إلى قلبـه وأنعشـته وهـو في قـبره فتوهبـه الحيـاة مـن حياتـك الخالـدة وتزيـل عنـه أثـر المـوت وتنشـق الأرض حينئـذٍ عنـه وهـو في كامـل صحتـه وشـبابه ثـم توحـي إليـه في مسـامعه مـا تشـاء مـن أوامـر أو نواهـي.

فقـال تـوران: ليكـن ذلـك، وبالفعـل عـزم تـوران لإحيـاء أخيـه مـن

الموت وفعل ما لابد أن يفعل، وقام أخوه من بين الموتى شاخصًا بصره إلى السماء وزال ذلك اللون الرمادي عن عينيه ووجد صوتًا عظيمًا في ذهنه يأمره بطاعة الأرباب والتزام السير الحسن في الحياة وأن بعثه من الموت آية عظيمة وأن له ثوابًا من لدن الآلهة أن يحيا وسط بني الإنسان كأنه منهم وأن عليه واجب يؤده إليهم برعاية الفقراء والصغار والعاجزين.

فنظر حوران حوله ثم إلى جسده فوجد أنه قد زال الشعر الكثيف من أطرافه ومد يده ليحس رأسه فوجد فكه قد صار صغيرًا ووضع يده على جبينه فوجده قد صار أملسًا مستويًا فعلم أنه في خلق جديد، فسأل عن صاحب ذلك الصوت الذي أحياه هل هو إله وإن كان كذلك فمن هو وما علاقته به إذن ولماذا اختاره هو ليحيا من بين الأموات، فرد عليه توران مخفيًا عنه حقيقته قائلاً:

أنا منهم وأنت مني وليس لك أن تعرف أكثر من ذلك.

ثم سأله حوران سؤالاً آخر:

إني ليس لي خير أو مال أو ثروة فكيف أنفق على الفقراء والضعفاء وذوي الحاجة.

فرد عليه قائلاً: إني سوف أعلمك كل شيء فسأكون معك أسمع وأرى في كل لحظة تريدني فيها معك ولن أتركك، أما بشأن المال فاذهب إلى جزيرة الأرباب حيث دفن كهنة المعبد كنز الآلهة المقدمة من القرابين في كهف هذه الجزيرة خشية أن يتم سرقتها والاستيلاء

عليها في وقت الحرب فخذها وتمتع بها وحدك وإن لك لقصرًا ما بعد الواديين لتقيم فيه وبعد ذلك لا تتوان عن ذكر ما أنعمت به عليك أمام الناس وقبل ذلك أمام نفسك.

ثم سأله حوران قائلاً: وإذا أردت ذكرك فبأي اسم أناديك؟

فصمت قليلاً وقال له:

نادني بأخ الناس الخفي.

فرد عليه: هو ذلك يا أخ الناس الخفي، أيها الرب الكريم.

فكان ما كان وفعل ما فعل تحت سمع وبصر توران وبأوامره وتعاليمه وإرشاداته حتى ركب حوران السفينة التي أرشده إليها توران ليذهب إلى الجزيرة المخبأ فيها كنز الآلهة ونزل فيها وأخرج الكنز من جوف الكهف فطمع البحارة في الكنز الذي خصته الآلهة لحوران، فأمر توران حوران بأن يقول لهم أن يبتعدوا عنه وإلا غضبت عليهم الآلهة وصبت جم غضبها عليهم فسخروا منه وقالوا له:

آآلهة تحميك، إنك حتى لا تتمكن من الحديث بسلاسة يا صاحب اللسان الرديء.

فقال لهم حوران بأمر مسبق من توران إن السماء ستكون مظلمة سوداء الآن رغم سطوع الشمس التي ستبدو لكم كقرص أسود تحيطه هالة حمراء ويختفي عنكم ضوؤها.

فاستمروا في السخرية إلى أن حدث ما أخبرهم به حوران بالضبط

فذهلوا جميعًا وعلموا يقينًا بأن الآلهة تحمي حوران بالفعل فخروا ساجدين له وقالوا له: أؤمرنا بأي فعل نفعله لأجلك فنحن من الآن خدمك وخدام الآلهة التي تحميك.

فقال لهم: احملوا ذلك الكنز إلى حيث آمركم.

ففعلوا ما أمرهم به ولم يغفل أن يعطيهم جزءًا من الكنز فشكروا له ولآلهته، ثم انتشر أمره وذاع صيته وكان كلما غدا أو راح سأله الناس عن ماله من أين جاء به وعن حقيقة ما حدث من آية كونية كبرى، فكان يقول عن ماله بأنه هدية من الأرباب وكان يتفاخر بين الناس بأن الأرباب أحبته وفضلته عن كثير من المخلوقات فكان له مُلكا عظيما وثراء واسعا وشاع أمره في البلاد وعن عطائه اللامحدود لكل فقير أو مسكين أو يتيم أو أرملة أو عابر سبيل فكان يأتيه ذوو الحاجة فيعطيهم وينفق عليهم كالذي ينفق على أهل بيته.

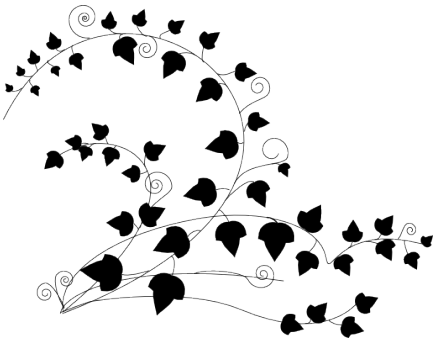

"زار" في عالم توران

بينما كان توران يتنعم في هيكل الأرباب لم يكن على علم بمخطط مردوخ وبمن دفع إلى العالم الذي ينتمي إليه توران، ولم يكن على علم أيضًا أن الزمن لا وجود له في هيكل الأرباب وأن الأمور تتم فيه بمجرد التفكير بها وتنفيذها يقع على المكلفين بها فهم فقط الذين يدركون آلام الواقع بمرور الوقت عليهم، وبأن حاجة مردوخ إلى الانفراد وإثبات ربوبيته في ذلك العالم كان يتطلب بعثه لرسول إلى أهل وسكان هذا العالم. وبعث رسول ليس بالأمر اليسير بل يجب أن يلازمه تأييد من قبل السماء بإرسال آيات مؤيدات ومعجزات مصدقة عند هؤلاء الخلق حتى يؤمنوا برسالته.

وكان زار مسيح العوالم السفلية هو وسيلة مردوخ لذلك الغرض، وكان ما دعا زار إليه مخالفة عقائد هؤلاء القوم الذين كان ينصب إيمانهم على توران كإله لهم كونه هو خالق النار في عالمهم الذي يعرفونه فمنذ موته كان لاكتشافه النار أمرا عظيما جعل هؤلاء القوم يتكابر عندهم شخص توران فقالوا عنه أنه الإله الخالق الذي خلق كل شيء في حيزه ثم تجسدت روح الإله في جسد توران ليفعل ما فعل، وزعموا أن الخلق عندهم قد مر بعدة مراحل في كل مرحلة تتجسد روح الإله في جسد جديد حيث اعتقدوا بعقيدة إحلال روح

الإلـه والتجسـد والتقمـص وسـموها بعقيـدة التشرنـق نسـبة إلى مرحلـة الشرنقـة في أطـوار الحـشرات.

انتـشرت هـذه العقيـدة بـين جميـع قبائـل الـبن فـكان هـو الإلـه المعبـود، ثـم ازدادوا في ذلـك فزعمـوا آلهـة أخـرى بجانـب تـوران لكـن ليـس مـن بينهـم مـردوخ أو أحـد ممـن معـه. ومـع ازديـاد الأمـر عـلى غـير مـا يريـد مـردوخ ولا يشـتهي فـأراد إثبـات ربوبيتـه في هـذا العـالم بالقضـاء عـلى تلـك المعتقـدات ووصفهـا بالخاطئـة وجـاءت إرادة مـردوخ بإرسـال «زار» الـذكي الأمـين وكان تحـت رعايـة مـردوخ وملائكتـه وكبيرهـم محاقيـل منـذ ولادتـه حتـى شـب رجـلاً قـادرًا عـلى تحمـل هـذا التكليـف. تـألم زار لمـا لاقـاه بدايـة مـن قومـه الـذي بُعـث إليهـم مـن تكذيـب وتآمـر عليـه في بدايـة دعوتـه ولم يكـن يعلـم الـسر والسـبب الخفـي وراء إرسـاله وتكليفـه هـذا فـكان يدعـو إلى عبـادة إلـه آخـر غـير المعبـودات في قومـه وكان يعتقـد فيـما أوحـي إليـه مـن ملائكـة مـردوخ أن مـردوخ هـو خالـق كل شيء حتـى النـار التـي أشـعلها تـوران نفسـه، وأن فكـرة إنـكار ألوهيـة تـوران وآخريـن كانـت تتزعـزع داخـل نفسـه حتـى أيـده مـردوخ بآيـاتٍ معجـزات ومنهـا إهـلاك قبائـل الحـن بعاصفـة مـن نـار ملتهبـة خرجـت مـن أعـماق الأرض أحرقتهـم وأذابتهـم عـلى الفـور.

فقـال لهـم «زار»: هـا هـي نـار مـردوخ العظيـم تخـرج مـن أحشـاء الأرض التـي صنعهـا فهـل قـدر تـوران عـلى مثلهـا مـن قبـل؟

فصدقـه حينئـذٍ كثـيرون وبـدأت دعوتـه في الانتشـار والتوسـع حتـى

قل عدد المؤمنين بتوران وتقلصت أعداد متبعي تلك العقيدة وخفتت أصوات العابدين لتوران، وكان يشعر زار في نفسه شعورًا عظيمًا إذ أنه كلما جاءته معجزة نال سعادة وأملاً كبيرًا وكان يعبد مردوخ بكل ثقة وإخلاص ووعي أنه لا معبود بحق غير الذي يعبده.

وذاع صيته بين القبائل فآمنوا بعقيدته وعبدوا جميعهم مردوخ الإله الذي أرسل «زار» إليهم ليخلصهم من الجهل وأشعلوا نيرانًا لمردوخ ليكون إلهًا للعالمين خالقًا لكل شيء وهو المحي والمميت للخلائق جميعًا وهدموا رموز الضلال من وجهة نظرهم الجديدة وهي تماثيل أقاموها هم وأباؤهم لتوران وآخرين من الصالحين المؤمنين بهذه الملة من بعد موت توران، ثم ما لبث أن أوحى إلى زار أن يدعو المؤمنين له بادعاء أن توران هو مجرد ساحر ملعون يمثل جانب الشر وأن عليه وعليهم أن يلعنوه في كل صلواتهم وباقي أوقاتهم.

ولم يكن «زار» يعلم ومن آمن معه بحقيقة ذلك المعبود القديم الملعون وأنه قد صار إلهًا حقيقيًا وبأمر من مردوخ شخصيًا ولم يظنوا في توران غير أنه ساحر ملعون، وأعلن زار ذات مرة بأن توران شيطانًا من أوثان الأزمان الغابرة.

وفي ذلك المشهد خرج زار إلى من معه وسعى بينهم في ذات يوم قائلاً لهم:

ما قولكم إذ أخبرتكم أمرًا جديدًا بشأن الملعون.

فلم يعلموا من يقصد، فقالوا له:

صدقتنا فيما تقول يا رسول مردوخ العظيم الذي خلق كل شيء، وكيف نكذبك من بعد أن رأينا من المعجزات على يديك فقد رفعتنا إلى السماء وظهر القمر في سماء ليالينا وما أبصرنا السماء الزرقاء ولا البحار الزرقاء في الأفق إلا على يديك وما كانت السماء من قبل إلا صفراء مائلة إلى الحمرة وما كانت البحار إلا سوداء وما هُدينا إلى النجوم إلا بوجودك معنا.

فقال لهم: إني قد أوحي إليّ بأن توران ذلك إنما هو ساحر ملعون.

فقال لهم مستكملاً: أتصدقوني؟

فردوا عليه: بلى صدقتنا.

فقال مفعمًا بالإيمان ونشوة التصديق:

فالعنوه دائمًا كلما جاء ذكره أو خطر على بالكم فإنه شيطان لعين فافعلوا ما آمركم به مثلما أنا فاعل.

ففعلوا مثلما فعل زار وقالوا مثل قوله، وانقلب الحال في هذا العالم كما أراد مردوخ وأكثر مما يشتهي.

ولكن هل كان لهذا تأثير على وضع توران في هيكل الأرباب؟

والإجابة معلومة إذ أن إرادة مردوخ هي التي ستدفعه فيما يلي من أحداث.

بدأ توران يستشعر تغيرات تطرأ عليه فبعد أن كان ممتلئًا بقوة جامحة وإرادة عالية ونورانية عظيمة جعلت باستطاعته أن يحبس ضوء

الشـمس عـن الأرض في معجـزة أخيـه حـوران، تسـلل الهـوان والضعـف إليـه شـيئًا فشـيئًا، فرأتـه حليلـة ذات مـرة وقـد ظهـرت عليـه آثـار تلـك التغـيرات فسـألته عـن سـببها وبـدت الشـكوك تثـور حـول مـردوخ ومـن معـه، فعلـما نيـة مـردوخ في عـزل تـوران مـن مقامـه في هيـكل الأربـاب ومحاكمتـه وليـس هـذا فحسـب بـل علـما أيضًـا أن مـردوخ يريـد نفيـه في أرض العـذاب والانتقـام الأبـدي، فكانـا خائفـين منتظريـن بـين لحظـة وأخـرى قـدوم ملائكـة مـردوخ لتنفيـذ مـا أمرهـم بـه مجلـس الأربـاب فـما كان مـن حليلـة إلا أن تقـف بجـوار تـوران وتفتـق إلى ذهنهـا عـدة أفـكار فقالـت لتـوران ونصحتـه بـأن يتمالـك أعصابـه ولا يقـوم بـأي فعـل يُعاقـب عليـه قبـل محاكمتـه واعـدة إيـاه بـألا تتخـلى عنـه أبـدًا في أي مـكان سـيذهب إليـه.

وبالفعـل قـدم ملائكـة مـردوخ وقبضـوا عـلى تـوران ووضعـوه في مكان معـزول تمهيـدًا لمحاكمتـه بعلـم مـن مـلأ الأربـاب بعيـدًا عـن مقامـه بهيكل الأربـاب وكانـت حليلـة تتبعـه حيـث كانـوا يمهـدون إيداعـه بـأرض العذاب والهـلاك الأبـدي مـن بعـد أن تتـم محاكمتـه بتهمـة فسـاد روحـه ومعانـدة القـدر، فنظـرت إليـه في خفـاء عـن الملائكـة الحـراس وتلاقـت عيناهـما وتذكـر قولهـا لـه بـأن يثـق فيهـا، ولأول مـرة شـعر تـوران منـذ قيامـه مـن بـين الأمـوات وصعـوده إلى هيـكل الأربـاب بالرغبـة في النـوم واسـتغرق في نـوم عميـق فتسـللت حليلـة إلى معزلـه وأمسـكت برأسـه ووضعـت يديهـا عـلى وجهـه ماسـحة لـه ثـم تمتمـت بكلـمات في أذنـه وكاد أن يسـتيقظ فقالـت لـه:

أنا معك لن أتركك.

فهدأت نفسه وراح في النوم مجددًا فقد صار حينها فانيًا من جديد وأكملت تمتمتها في أذنه وهي تنظر إليه في شخوص ثم غطته بثيابها ونزعتها عنه فوجدته كما أرادت طفلاً رضيعًا فأمسكت به وأرضعته فرضع وأتم الرضاعة كاملة حتى نام وهي لا زالت تهمس في أذنيه قائلة:

سأعود إليك ولن أتركك فأنت الآن نصف إله.

ثم خرجت وهبطت به من السماء ووضعته بين ذراعيها مغطية إياه بين طيات ملابسها حتى لا يراه أحد من الناس أو من ملائكة مردوخ إذ أنها قد نزلت به إلى الأرض إلى حيث عالم الإنس وكان المكان حيث هبطت أرض شنعار فوضعته أمام معبد الأرباب الكبَر في ليلة حالكة السواد. وبالفعل استطاعت تهريبه من هيكل الأرباب دون أن يلاحظوا ما حدث، فوجده جماعة من الناس أمام المعبد وكانت حليلة واقفة من بعيد ترقبه وتراقب ما يحدث حتى إذا استقر الناس على أحدهم بتربية هذا الرضيع وكفالته.

وفي يوم آخر قابل هذا الرجل الذي كفل الرضيع امرأة حكيمة كان قد سمع عنها وعن حكمتها وعلمها من قبل قد طرقت بابه فأدخلها وأكرمها ولم تكن إلا حليلة قد تجسدت في جسد تلك المرأة وسألته عن ذلك الرضيع الذي وجده أمام باب المعبد منذ ليلة أمس فأبدى اندهاشه من علمها بذلك الأمر رغم عدم بوحه به لها وذكرت له

بـأن ذلـك الرضيـع سـيكون لـه شـأن عظيـم، فعليـه أن يربيـه تربيـة جيـدة. فسـألها إن كانـت تعلـم والدتـه فنفـت ذلـك وقالـت لـه هـذا الطفـل لا أب لـه ولا أم وأمرتـه بتربيتـه في حجْـر الكهنـة ليتعلـم منهـم علـوم اللغـة والكتابـة والعقيـدة وأن اسـمه «تـوران» وأن عليـه أن يحفـظ سره. وعندمـا سـمع الرجـل الـذي تكفـل بتربيتـه بهـذا الاسـم التمعـت عينـاه إذ أنـه اسـم قديـم لرجـل صالـح في قومـه كان لـه صراع مـع بعـض الآلهـة وخـرج مـن هـذا الـصراع منتـصرًا كـما تقـول الروايـة الأسـطورية، ونظـر إلى الطفـل ثـم أعـاد النظـر إلى المـرأة فلـم يجدهـا فاستشـعر الخـوف وعلـم بحقيقـة قـول تلـك المـرأة بشـأن ذلـك الطفـل فكتـم سر هـذا الرضيـع ولم يفصـح عـن حقيقتـه لأحـد مـن النـاس ولا حتـى إلى أهـل بيتـه الذيـن يكفلونـه.

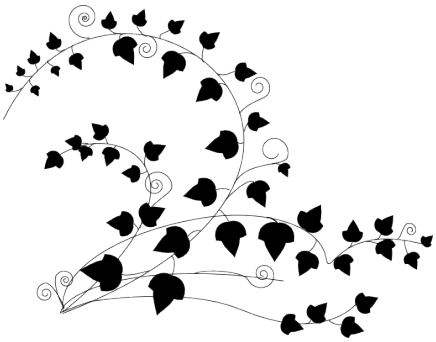

حقيقة الآلهة

وفي المشهد الحاضر، تبين لتوران الكثير من الأمور والأحوال الخاصة به وتذكرها كاملة واكتمل بذلك عقد ذكرياته المنسية والمطموسة وأدرك واقعه وكينونته وكيف كانت مادته وكيف أصبح حاليًا بمثابة نصف إله، وأهم ما علمه توران هو حال أخيه حوران بأنه يحيا الآن في هذا العالم بفعله هو شخصيًا وعلم مكانه وسكنه وأدرك أنه في خير حال. فقام توران واتجه نحو باب داره من بعد أن كان جالسًا يتأمل ويفكر، وتطلع إلى السماء ناظرًا بأم عينيه مستدركًا نجمة في السماء؛ فلقد علم حينما كان ربًا من الأرباب في السماء في هيكلهم أن نجمه سطع وظل براقًا حتى خفت قليلاً من بعد مكيدة مردوخ الذي رفعه وسطهم حيطة ولؤمًا حتى يتسنى له طمس ذكره بعد ذلك وهو ما حدث، فتأمل توران إلى حيث موقع نجمه فأبصره زاهيًا متلألأ بما ينقض عمل مردوخ كله كأنه هباء فعلت وجهه ابتسامةٌ عريضة إذ لم يستطع مردوخ أن يمحو أثره، ثم قال في سريرته مستنكرًا وساخرًا من تلك التهمة الملفقة التي أعد لمحاكمته بها: فساد روحي ومعاندة القدر!! ها هو قدري واضحًا على غير رغبة مردوخ وإرادته وها هي روحي يشهد لها موقع نجمي. إن مردوخ في الواقع لا يعلم الغيب كما يدعي ويزعم، وهذا أكبر دليل على ذلك. لقد أدركت الآن

أن القـدر يسـير أحيانًـا عـلى غـير مـراد الآلهـة الذيـن يزعمـون عكـس ذلـك. داهيـة هـي حليلـة لقـد أدركـت تلـك الثغـرات التـي يمكـن أن ينفـذ منهـا أمـر تـوران صحيحًـا معـافى. إنـه القـدر بعينـه وبذاتـه، القـدر الـذي يحكـم كل شيء حتـى أحـوال الآلهـة أنفسـهم.

وقـد علـم بعـض النـاس ذلـك الـصراع الدائـر بـين شـخص منهـم وبعض الأربـاب وانتصـاره عليهـم مـن خـلال قـراءات علـم الأبـراج والتنجيـم، ذلـك العلـم الـذي يحـكي أحـوال الآلهـة ومكاناتهـم ومقاماتهـم وهـو نفـس العلـم الـذي يكـرس للأربـاب ملكهـم وملكوتهـم.

أخـذ تـوران نفسًـا عميقًـا وأدرك أنـه في خـير حـال وأنـه قـد نجـا نجـاة لم يسـبقه إليهـا أحـد مـن قبـل ولكنـه ينقصـه رؤيتـه لحليلـة ليعلـم إلى مـاذا سـتؤول الأمـور ومـا سـيكون إذا علـم مـردوخ بحقيقتـه وبوجـوده متسـترًا في عـالم الفنـاة ومـاذا سـيفعل تـوران حينئـذٍ، إلا أن حليلـة قـد سـبق ونصحتـه بـألا يفصـح عـما تذكـر لأي أحـدٍ كان وغايتهـا ألا تنقلـب الأمـور وتصـير ضـده ويمـسي الوضـع صعبًـا هـذه المـرة وكانـت دليلـه مـن الخـلاص هنـا في هـذه الواقعـة رفيقتـه حليلـة فبدونهـا لم يكـن ليعلـم شـيئًا وبدونهـا أيضًـا لم يكـن ليملـك طريقًـا مهتديًـا فيـه إلى نهايـة مباركـة وإلى مآلٍ سـليم. كـم يشـتاق تـوران للقـاء حليلـة في كوخهـا هـذه المـرة أكـثر مـن سـوابقها، فقـد اهتـدى إلى كثـير مـن الأمـور وتذكـر كل الأحـداث كـما كانـت رغبتهـا تمامًـا منـذ البدايـة، وأمـسى تـوران يعـد الليـالي انتظـارًا لاكتـمال القمـر بـدرًا لـكي يغـدو مـن بعـده محاقًـا ويذهـب إلى رفيقتـه حليلـة وليعلـم منهـا مـا

لا يعلمه حتى الآن ويملؤه كل الشغف والرغبة إلى ذلك.

****

وفي نهار يوم آخر أتم توران عمله في حقله وذهب إلى بيته فاستراح قليلاً حتى أقبل الليل وقد أشعل نارًا للتدفئة وفى هذه الأثناء مد يده إلى النار فأحس بحرارتها ثم قام بالنفخ فيها ففعل ذلك مرة تلو أخرى فكانت سبع مرات ثم جاءته فكرة بأن يمد يده إلى داخل النار فوجد عجبًا أن النار لا تؤذيه ولا تحرقه فانفرجت أساريره فرحًا ثم أدخل يده مرة أخرى فوجدها كما هي باردة فأدخل ذراعه كاملة فلم تحرقه النار ولم تمس ثيابه بسوء وكان وجهه سعيدًا بما وجد وأراد أن يقفز كالأطفال فرحًا بحاله ثم قام وخلع نعليه ووضع قدميه داخل النار الموقدة فكانت باردة عليه ولم تأته بشر أو أذى أو أي ألم. وفي أثناء ذلك أقبلت امرأته إيشاهات عليه فلما أحس بها قادمة أخرج قدميه من النار سريعًا، فلما قدمت زوجته أبدت استغرابًا لما لمحت وسألته قائلة: أكنت تضع قدمك في النار أم كان يهيأ لي ذلك؟

فسعل ثم كتم توران سره قائلاً: بالطبع كان يهيأ لكِ ذلك.

ثم نظرت إليه في عينيه قائلة:

أيوجد خطب ما، أهناك شيء تخفيه عني؟

فرد عليها: لا شيء لدي لأخفيه عنكِ.

ثم نظرت إيشاهات إلى النار المتوقدة قليلا ومدت يدها إليها

شيئًا فشيئًا لتتحسس حرارتها فلما قربت يدها إلى النار أحست بألم لسعة حرارتها، ثم نظرت بعينين جاحظتين إلى زوجها قائلة:

أنا على يقين بأني رأيتك تحرك قدميك داخل النار.

فضحك لها نافيًا وساترًا لما حدث: لا بالطبع فالنار لا تتغير طبيعتها أبدًا، ثم أمسك بذراعها بقوة وقربها منه وقال لها: ربما حدث لكِ خداع بصري. فنظرت إليه بضعف ووجهها على مقربة من وجهه فقبلها قبلة ناعمة ثم قال لها: هلا أحضرتِ لي نبيذ التمر، فأومأت برأسها ثم استدارت متجهة إلى المخزن لجلب النبيذ وهو لا يحرك نظره عنها حتى تأكد من ذهابها ثم قام بوضع يده داخل النار مرة أخرى وظل يحركها مرارًا وتكرارًا وهي على حالتها غير مؤذية ولا مؤلمة حتى حضرت زوجته بالنبيذ وهي غير مستوعبة لما رأته من قبل فقدمت إليه الشراب فشرب منه ثم قام ومد ذراعه حول كتفي امرأته التي كادت أن تغادر ضامًا إياها إليه وهي تنظر إليه بذهول ثم قالت له: ألديك ما تخفيه عني؟

فقال لها: بلى. فقالت له ووجهها يزداد حمرة: أحس بحرارة خارجة منك، إنك لست على طبيعتك. فقال لها وهو يضمها بقوة: بل هي حرارة حبي لكِ.

فأراد أن يلهيها وينسيها بمعانقتها ولكنها قد أبدت رفضها لطريقته وحاولت إبعاده عنها فلم تقدر ثم حاولت بكل قوتها قائلة له: ابتعد عني لما تمسكني هكذا؟ ثم أفلتت منه وهي تقول: يوجد

شيء غـير طبيعـي إني بـدأت أخـاف منـك، ثـم تركتـه مبتعـدة عنـه.

تنفـس تـوران بعمـق وقـال في سريرتـه: إننـي وجـدت سـبيلاً لي إن النـيران لـن تحرقنـي أبـدًا مـا حييـت لقـد تفوقـت طبيعتـي ومـادتي عـلى طبيعـة وخـواص النـار، وإني أحـس بقـوة جامحـة كـما كنـت أحسـها حينـما كنـت في هيـكل الأربـاب إنهـا لبـشرى عظيمـة.

ثـم نظـر إلى السـماء في تلـك الليلـة مترقبًـا للقائـه حليلـة في ليلـةٍ أخـرى عـما قريـب.

****

جـاء الموعـد المنتظـر وذهـب تـوران إلى حليلـة وأخبرهـا بمـا حـدث معـه بشـأن تلـك النـار التـي لم تحرقـه فقـد كان كل ليلـة يفعـل مـا قـد فعلـه في الليلـة الأولى وتكـرر أثـر هـذا الأمـر معـه كـما كان أول مـرة.

فقال لها: إن النار تغيرت طبيعتها معي، وحكى لها ما حدث.

فأجابتـه قائلـة: لا تعجـب إن طبيعتـك ومادتـك سـتعود كاملـة كـما كانـت في هيـكل الأربـاب، وعليـك أن تخفـي تلـك القـدرة وتظـل مختفيًـا بـين بنـي الإنسـان.

وقـال تـوران لحليلـة متسـائلاً: هـذا بالتأكيـد عـلى غـير إرادة مـردوخ ومـن معـه مـن الأربـاب؟

فـردت عليـه: صحيـح، ولكنـه قـدرك فقـد صرت مثـل آنليـل فحينـما ألقـى آنليـل كلمتـه وأوجـد النـار مـا كانـت لتؤذيـه أبـدًا ولا أن تـؤذي أحـدًا

ممـن كان عـلى طبيعتهـا وطورهـا.

ثم قال لها: وكيف يكون الحال إذا علم مردوخ بذلك؟

قـد يعلـم بعـودة مادتـك إلى طبيعتهـا الأولى ولـن يقـدر حينهـا عـلى تعذيبـك في أرض العـذاب الأبـدي ولكـن الأهـم إذا علـم آنليـل بذلـك.

فسألها: وماذا سيحدث إن علم آنليل؟

فردت عليه قائلة: سيقوم بدوره الذي بدأ به.

فقال: وما هو دوره؟

فقالـت: ألا تذكـر أنـه هـو الـذي أوجـد النـار وأن دوره بـأن يرجـع النـار الى خواصهـا الأولى. ثـم قـال لهـا: وأيـن هـو آنليـل الآن؟ فـردت عليـه: هـو مثلـك غائـب عـن الأبصـار ولكنـه غافـلاً فاقـدًا للوعـي واليقظـة بعـد أن اسـتولى مـردوخ عـلى ملكـه وحتـى اسـمه وربمـا يسـتفيق في أيـة لحظـة حـين ترجـع عبادتـه بـين أتبـاع طـوره فشـجرة حياتـه قائمـة أزلاً وحـين عودتـه سـيعلم بالحقيقـة ويفطـن ذلـك حينـما لا تـؤذه النـار وتكـون لـه نـورًا بغـير حاجـة لانعـكاس كـما سـتكون عليـه حفظًـا وأمنًـا وبـردًا وسـلامًا.

ثـم اسـتكملت قائلـة لـه: إن هـذا سـيعد بمثابـة انتصـار لجميـع المسـتضعفين بفعـل مـردوخ.

فرد عليها: وكيف ذلك؟

قالـت لـه: إني قـد تعلمـت وأيقنـت بـأن كل شيء يعـود كـما بـدأ فتكـون دائمًـا النهايـات كبداياتهـا، فـإن كان آنليـل حيًـا ويقظًـا وعـلى علـم

ووعـي كاملـين مـن بعـد رضـوخ والديـه السـماء والأرض لمـردوخ كـما تعلـم فـإن آنليـل سـيجعل مـن النـار التـي أوجدهـا مـن حيـث طبيعتهـا وخواصهـا كـما بـدأ بإيجادهـا مخالفـة كليـة عـلى مـا هـي عليـه الآن لأن النـار في بدايتهـا كانـت آيـة وطـورًا عظيـمًا ومتفوقـة عـلى مـا سـبقها مـن عنـاصر الظلـمات كافـة فهـي طـور مـن أطـوار الخليقـة وكانـت في بدايتهـا ذات المقـام الألوهـي العـالي وكان وصفهـا كالنـور فالنـور هـو انعـكاس لضـوء النـيران، فكانـت النـار آنـذاك علامـة ومقـام الإلـه الخالـق ونـورًا بحـد ذاتهـا بغـير منعكـس ولم تكـن مخصصـة للتعذيـب ولا تـؤلم بـل كانـت عـلى العكـس أمـلاً ورجـاءً وتنعيـمًا وراحـة أبديـة، فلـما انعكـس منهـا نـور زالـت إرادة وجودهـا وأصبحـت آيـة تخويـف لا ترغيـب ولكنهـا سـوف تعـود كـما بـدأت.

فسألها: وكيف ذلك؟

فـردت: «بانقـلاب خواصهـا إلى أن تكـون هـي وسـيلة حيـاة بذاتهـا ولـكل مـن ينتسـب إليهـا مـن مخلوقـات ذات طبيعـة أخـرى ويسـلم مـن بداخلهـا مـن كل شر أو أذى أو عـذاب، خاصـةً مـن هـم في عـالم العـذاب الأبـدي المؤصـد عـلى مـن بداخلـه. هـذا التغـير هـو مـن طبيعـة الأشـياء والعنـاصر التـي بداخلهـا، فاختـلاف الحيـز مـن طبيعـة معينـة إلى طبيعـة أخـرى مخالـف لهـا كليـة تكـون بانعـكاس وهـذا الانعـكاس يـؤتي أثـره بعكـس خواصهـا الظاهـرة إلى خواصهـا الباطنـة كالانقـلاب القطبـي المغناطيـسي كمثـل تقريبـي وهـذا مـما تقتضيـه طبيعـة الأطـوار

في الموجـودات؛ فالنـار وانعكاسـها - أي النـور - موجـودات تلازمنـا والنـور طـور لاحـق عـن النـار فسـتعود النـار كـما بـدأت إلى سـابق عهدهـا آيـة ومقـام كبـير، لأن دوام الحـال مـن المحـال وأن لـكل معلـوم اسـتثناء يخالفه.

فقـال لهـا تـوران: فالنـار إذًا كـما تـؤدي دورهـا في الإحـراق والتأليـم سـوف تـؤدي دورهـا في التنعيـم.

فقالـت: هـو ذلـك ولكـن ليـس عـلى كل الخلائـق بـل المرتبـط بهـا فقـط.

فسألها: ومتى يكون ذلك؟

فـردت عليـه: حينـما يخلـف مـردوخ وعـوده ينقلـب عليـه الطـور، فمـن الممكـن أن تنقـض كلمـة مـن الآلهـة كلمـة أخـرى فتلغـي مفعولهـا فكلـمات الآلهـة كالبحـر الـذي لا ينفـد.

فسألها: أمن آنليل سيكون الانقلاب التطوري إذًا؟

فـردت عليـه: إن آنليـل هـو الأقـرب لفعـل ذلـك لتفـوق مادتـه، وربمـا يـأتي الانقـلاب مـن أحـد قريـب الصلـة منـه فمنبـع كلـمات الآلهـة لا ينضـب أبـدًا فتعلـو مادتـه عـلى مـادة الآلهـة وتتفـوق كلمتـه عـلى مـردوخ ومـن معـه أو ربمـا يـأتي ذلـك مـن قبـل أحـد ممـن مـع مـردوخ نفسـه.

فقـال لهـا: لهـذا السـبب لم يـترك لي مجـالاً في هيـكل الأربـاب بـل بيـت خطتـه للقضـاء عـليَّ بهـذا الأسـلوب وبهـذه الطريقـة التـي رفعنـي بهـا احتياطًـا ثـم عزمـه عـلى القضـاء عـليّ نهائيًـا بـأن يسـجنني في أرض العـذاب

الأبـدي مـن بعـد أن يلعننـي أتباعـي.

فقالـت: هـو كذلـك فهـذه سياسـته، إنـه لا يصنـع إلا مـا في مصلحتـه ومـا كان الداعـي إذًا لوجـود عـالم مخصـص للعـذاب يسـجن فيـه مـردوخ أعـداءه إلا لمصلحتـه ولبقـاءه إلى الأبـد؟

فقـال لهـا: وكيـف يوجـد أعـداء لـه مـادام مسـيطرًا عـلى كل شيء كـما يدعـي فالعـدو دائمًـا هـو مـن يعلـم نقـاط ضعـف عـدوه فيعاديـه ولـو كان كاملاً كـما يدعـي أو يحـب أن يكـون مـا كان ليوجـب أن يوجـد عـدو لـه لأنـه إن كان كاملاً لـكان كل شيء كاملاً بكمالـه!

ثـم سـألها: ومـاذا سـيحدث إذًا حـين ينقلـب الطـور عـلى مـردوخ بالنسـبة لمـن هـم في أرض العـذاب الأبـدي؟

فقالـت لـه مردفـة: حينهـا يظـن أهـل النـار المؤصـدة عليهـم أنهـم سـيبقون في عـذاب مسـتقر ومسـتمر ولكنهـم سـيفاجئون بتغـير مادتهـا ومادتهـم بعـد أحقـاب مـن الزمـن.

فسـألها تـوران: ومـاذا عـن أهـل الظلـمات أو ليـس مـن هـم في الظلـمات في عـذاب أبـدي؟

فقالـت لـه: كلا، إن مـن هـم في الظلـمات سـيظهر عليهـم آثـار هـذا الانعـكاس وهـو مـا سـيجعل ممـن هـم في عـوالم ظلاميـة في عـذاب أبـدي ظنيًـا فقـط ولكـن في الواقـع هـو عـذاب غـير أبـدي حتـى يحصـل الانعكاس فتختلـف طبيعتهـم ومادتهـم فيكونـوا في نعيـم وراحـة أبديـة، ثـم قالـت شـارحة:

قد يظن من في تلك العوالم أنهم في ظلمات تامة، ولكنهم في الواقع في طبيعة أفضل لخواص منعكسة وقريبًا سينفردون بعالمهم بعيدًا عن باقي العوالم المتطورة. وقد أوشك هذا التحول على الحدوث في عالم الحشرات حيث ستختفي مادة عذابهم ويختفون هم بدورهم من هذا العالم إلى كون جديد خاص بهم. لقد اعتادت الحشرات على عالمها الظلامي، وتتفاوت درجاتها فمنها ما هو أقدم وأكثر ظلمة وأكثر تكيفًا مع عالمه المحيط. ولكن حين يتم هذا الانعكاس، ستنقلب حياتهم دون دراية أحد فيصير ظاهر كونهم ظلامي وباطنه نعيم مقيم في أحد العوالم المغلقة والمؤصدة على من فيها والتي ستكون في طي النسيان.

أخذ توران يفكر مليًا في كل هذه الأسرار الكونية وأراد استكشاف المزيد فسألها عن عدد هذه العوالم المغلقة والمؤصدة على من فيها؟

فردت عليه: عدد لا حصر له.

ثم استكملت قولها: ألا تنظر إلى كل شجرة أو زهرة فإنها تطوي في كونها عوالم لا متناهية أو حينما تنظر إلى ذرات الرمل في الصحراء الشاسعة فكل حبة رمل إنما هي كون منفرد بذاته.

فسألها توران: وأين عالمنا نحن في هذه العوالم الكثيرة اللانهائية؟

فقالت له: إن عالمنا يستقر على ظهر سمكة تسرب في بحر لا نهائي، فإن هذا الكون على اتساعه العظيم هو جزء صغير جدًا لا يذكر من عوالم غير منتهية ولا معدودة.

ثم سألها توران وهو شغوف إلى مزيد من المعرفة قائلاً:

وكم عالم يسيطر عليه مردوخ؟

فردت مجيبة عليه: تسعة عوالم ستة منها في السماء وهذه الأرض وأرض الجحيم والعذاب الدائم، وعالم آخر ظلامي تحت أرضي منسي ومتروك أمره وجميع هذه العوالم تطوق بعضها بعضًا.

ثم سألها: وما آفة الناس عند مردوخ التي ستتسبب في عذاب الكثيرين منهم في الجحيم الدائم في أرض العذاب والانتقام؟

فردت عليه: إن آفتهم الظاهرة هي عدم طاعة مردوخ ولكن الآفة الحقيقية المخفي أمرها هو ذلك السر الكامن لدى مردوخ والذي على إثره يسمح بإحداث الصراعات والاختلاف بين الناس فيكونوا بذلك خطائين يوجب الانتقام منهم وتعذيبهم وحبسهم إلى الأبد.

فقال لها: وما ذلك السر الذي يخفيه مردوخ؟

فقالت له مبتسمة: لو لم يكن سرًا لعلمناه، غير أنه يخفيه في نفسه بالسماح بوجود الشر في هذا العالم وهو بإمكانه عدم السماح بوجوده من الأصل.

فأيدها: إن السماح بالشر هو شر في ذاته.

فقالت له: ربما يعود سبب ذلك أن مردوخ جاء من قلب الظلمات وقد عانى منها وكان مرتبطًا بها وبطبيعتها فأراد أن يطمس كل قديم حتى يتخلص من ذلك الطبع الظلامي الذي يكمن في داخل

نفسـه.

فقـال لهـا: ربمـا يكـون هـذا هـو الـسر الـذي يخفيـه مـردوخ. ثـم سـكت برهـة وقـال مردفًـا: سرٌ يعيـب صاحبـه إذًا.

فقالـت لـه: بـلى، لقـد تبينـت أن مـردوخ ومـن معـه هـم مـن يمثلـون الـشر في الواقـع.

ما تتمناه سيكون لك قدرًا

«آه لـو اسـتطعت أن أجعـل النـاس جميعًـا يتمنـون لمصائرهـم وأقدارهـم كـما يتمنـون في عيشـهم الأمـاني الكريمـة، فبإمكاننـا أن نصنـع أقدارنـا بأنفسـنا وأن نقـف جميعًـا في وجـه مـردوخ والذيـن هـم معـه».

بهـذه الكلـمات بـدأ تـوران حديثـه مـع زوجتـه إيشـاهات في ليلـة قـد تأمـل فيهـا تـوران كثـيرًا قبـل أن يتلفـظ بهـا في حديثـه مـع زوجتـه المحبوبـة، فنظـرت إليـه وكان واضحًـا عليهـا عـدم اسـتيعابها شـيئًا مـما قـال زوجهـا ثـم اسـتكمل حديثـه قائـلاً:

إن هذا هو السبيل الوحيد لخلاص الناس من آلامهم.

فقالـت لـه إيشـاهات: وكيـف يتمنـى النـاس لمصائرهـم والقـدر هـو مـا يحـدث لهـم ولا دخـل لهـم في حدوثـه مـن قريـب أو بعيـد.

فقـال لهـا: لقـد أثبتـت تجربتـي مـا حدثتـك بـه، وأؤكـد لـكِ ذلـك عـن يقـين، فـإن مفهـوم القـدر لدينـا كان خاطئًـا منـذ البدايـة فلـو أن شـخصًا تمنـى لنفسـه بمـا ليـس موجـود في الواقـع وليـس بـه تعـدٍ أو ظلـم لأحـد أيًـا كان فلـما يعارضـه معـارض عاقـل؟

فسألته زوجته مستفسرة: من تقصد بوجه المعارض؟

فرد عليها: أقصد مردوخ ومن معه من الأرباب.

فقالت له: إني لا أفهمك.

فقال لها معبرًا: هذا هو جوهر الصراع بين القدر والعقل.

فقالت له: من تقصد بالعقل في هذا الصراع وما هو القدر من وجهة نظرك؟

فأجابها: أقصد بالعقل مردوخ، والقدر بما سيتفق عليه من أماني لا ظلم فيها ولا تعدي من أحد على أحد، والمتمني فيها هم الناس والمتمنى به هو قدرهم ومصيرهم.

فردت عليه: أنا لا أوافقك هذا الرأي خاصة مفهومك للقدر بهذا الشكل، فالقدر في الأساس تحدده الآلهة فكيف يكون الصراع بين الآلهة وبين ما يحددونه ويقدرونه للخلائق.

فرد عليها ممتعضًا: وأين ذلك القدر الذي قدرته الآلهة من تعرض الأقوياء بالبطش على الضعفاء وبنجاح الظلم والقسوة وفساد الأخلاق أزمنة طويلة واضطهاد كل باحث عن العدل من كل صاحب هوى هل هذا تقدير سوي؟

فسكتت برهة ودارت عيناها مفكرة وباحثة عن جواب ثم قالت:

لعل أحد الآلهة أراد بهذا الأمر أن تؤول إليه الأمور وحده.

فرد عليها قائلاً: صراع بين الآلهة تقصدين بل أجدر أن تقولي بأن القدر صنع صنعته بأن يتفكر الناس في حقيقة معبوداتهم من الآلهة التي يقدسونها بأنها ضعيفة أمام ذلك القدر الذي من الممكن أن

نصنعه بأنفسنا بالاتحاد معًا ووحدة الصف وتوحيد التوجهات، بل إن القدر نفسه تسير أموره على الآلهة على عكس إرادتهم.

ثم استطرد مفسرًا: فآية النار مثلاً ألا تحرق في حد ذاتها إذ قد يحدث تغيير لخواصها التي نعرفها، مما يعني أن الشخص المحكوم عليه بالتعذيب فيها من الممكن أن يكون لديه أمل بألا تستمر آلامه طويلاً إذا علم أن لها وظيفة أخرى غير الإحراق فربما تكون عليه نعيمًا أو تتفق مادته مع مادة النار فيكونا كالشيء الواحد.

فالشمس الحارقة التي لا تفنى تظهر علينا يوميًا وفي كثير من الأوقات دافئة أو لا تدفئنا بحرارتها في أوقات أخرى لبعدها عن الأرض فهي إذًا تؤدى أدوارًا مختلفة رغم قسوة حرها إلا أنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأيضًا الذي يوقد نارًا للإضاءة أو التدفئة أو غير ذلك فإنه يأتي بالغرض منها في حدودها، بل من الممكن أن يتعدى الأمر بأن يكون من في قلب النار سالمًا آمنًا دون أن يعلم أن ذلك ممكنًا في الأصل.

فقالت له زوجته: وكيف لا تؤذي النار بعض الناس ولا تحرقهم؟

فقام توران ووضع يده في النار الموقدة للتدفئة أمامها من بعد أن نفخ فيها سبع مرات من ثمانية جوانب وقفى مستمرًا بوضع يده في النار لفترة طويلة وأمسك بجمرة مشتعلة فلم تؤذه، فاندهشت زوجته اندهاشًا كبيرًا وجحظت عيناها وصرخت: ألا تحرقك النار.. أهذا سحرٌ جديد؟

فقال لها: أرأيتِ؟ ولكن لما وصفته بالسحر بل الصواب هو عودة

النـار إلى خصائصهـا الأولى، وذلـك سـيحدث أيضًـا مـع أنليـل إلـه الهـواء لأنـه هـو مـن أوجـد النـار المتمثلـة في الشـمس بـين أبويـه السـماء والأرض لأن القـدر حتـمًا سـيعلمه بحقيقـة أمـره حينـما لا تحرقـه النـار ولا تـؤذه.

فسألته: وكيف حدث هذا معك؟

فـرد عليهـا مجيبًـا: بـأن وجهـت إرادتي تجـاه هـذا الفعـل واتفقـت مـادتي مـع مـادة النـار وأيقنـت بتوحـد مادتنـا وأنـه لا صراع ولا عـداء بيننـا ويحـدث ذلـك مـع كثـير مـن النـاس ولكنهـم لا يبيحـون بـه ويحتفظـون بهـذا الأمـر سرًا ربمـا لأنـه لـن يصدقهـم النـاس.

فسألته زوجته: وما علاقة ذلك بمفهومك للقدر؟

فـرد عليهـا: تخيـلي مثـلاً لـو أن كل إنسـان تمنـى في حـدود علمـه جنـة يـأكل منهـا ويـشرب ويحيـا فيهـا حيـاة خالـدة لا يمـرض ولا يمـوت ولا يمـل ولا يتعـب وهـو فيهـا آمـن سـالم بـدون تعـرض أحـد لـه أو تعرضـه لأحـد آخـر وجعـل هـذا الأمـر ميثاقًـا وعهـدًا، فكيـف الحـال إذا وجـد مـن يعـارض هـذا وهـو غـير متـضرر بـل عـلى العكـس بمقـدوره أن يكـون هـو الضامـن والمحقـق لذلـك الميثـاق والعهـد، فكيـف يكـون وصـف ذلـك المعـارض في هـذه الحالـة؟

فردت عليه: بالطبع هو عدواني متسلط.

فقـال لهـا مسـتطردًا: فذلـك هـو عـين الـصراع بـين العقـل والقـدر، فلـو سُـئل كل النـاس عـن أمانيهـم لمسـتقبلهم وأقدارهـم ومصائرهـم وعُـرِضَ عـلى الأربـاب تحقيقهـا بـدون أن تتشـابك أمانيهـم بظلـم أو تعـدي

لأحد منهم على الآخر فما المانع الذي يحبس أحلام الناس وأمانيهم تجاه أقدارهم إن كان من مقدور الأرباب صيانة ذلك العهد والميثاق وتنفيذه لأنه مقدور عليه منهم، أليس ذلك بجائز؟

فردت عليه وهي تهز رأسها: بلى.

ثم استكمل: ومن الذي يصنع التعارض والخلاف والإذن بوجود ظلم وقهر وهو قادر على منعه؟

فقالت: معارض مخالف وظالم قاهر.

ثم قال لها: وما الهدف من وجود أو إيجاد صراع في الأساس إلا إذا كان هناك متنافس عليه؟

فطأطأت رأسها ثم قالت مستفسرة: ماذا تقصد؟

فرد عليها: هذا هو عمق الصراع ما بين القدر والعقل، تنافس من نوع تبغي فيه الآلهة امتلاك القدرة بالسيطرة على غيرهم حتى يتولد لديهم ذلك الإحساس بالسلطة المطلقة، فمن الممكن أن يكون لكل نفس عالمها وجنتها الخاصة بها وأن تكون الأقدار كما نتمناها ونرجوها وبالتالي ستكون هي الفائزة والمنتصرة في هذا الصراع في حال كانت تلك هي إرادتنا وتنحينا عن كل صراع وخلاف فيما بيننا.

ثم علا صوته قائلاً: أود أن أقول لكل الناس أطلقوا العنان في أحلامكم وتمنوا أقداركم جميلة وتخلوا عن كل صراع وخلاف بيننا فتلك ليست قضيتنا وإنما مصيرنا جميعًا هو الذي يجب أن يشغل بالنا

ويأتي على رأس أولوياتنا، اطمئنوا فالنتيجة مؤكدًا ستكون كما تتمنون تمامًا لو اتبعتم سنة نبذ الصراع والتطهر من أي ظلم أو تعدي على الآخرين ونزع تلك الغريزة الشريرة من أنفسنا بالتسلط على الآخرين، فإن أقدار الناس وإن لم تكن بأيديهم فإنها في الصميم يمكن صناعتها لو اجتمعوا على ذلك ومن الممكن بل من المؤكد حدوث تنازلات من جانب الآلهة.

فكما نتمنى ونفكر بتغيير أو تعديل الأشياء في حياتنا اليومية إلى الأفضل ونقوم بتحقيقها فمن الصواب إذًا أن نفكر ونتمنى لأقدارنا ومصائرنا، فهذا الشعور الجمالي والإحساس برؤية الأشياء بألوان مميزة تثير البهجة والفرحة تجعله شعورًا خلاقًا إبداعيًا في ظاهره وباطنه كما التفكير في ماديات الحياة. علينا أن ندع الصراع لأهله ومن يأذن بوجوده لأنهم حينئذ سيكونون هم الخاسرون جميعًا ولا يعنينا قولاً وعملاً إلا السلام لتحقيق الآمال.

فإذا أجمعنا في يوم من الأيام على ما ذكرته كان هذا عهدًا وميثاقًا تنقلب عليه الأمور ويكون بمثابة السبيل للخلاص الأبدي، وستقدم الآلهة تنازلات لتغيير الوصف الذي يلحق بهم وحينها ستتغير خواص الأشياء كالنار رغمًا عن إرادتهم، وذلك حين نعلم أننا لسنا للخلاف خلقنا فالخلاف نقمة علينا، ويربح كل منا أمانيه في تقرير مصيره وتحديد قدره وتعيين خلاصه إلى الأبد، فالجنات التي أعدتها الآلهة في اتساعها قد تشمل الجميع أما أمانينا التي تتولد في عقولنا لا حدود

لها فأيهما أكبر وأوسع، فهل من الممكن أن يأتي ذلك اليوم؟

فردت عليه زوجته: أنا لم أعد أفهمك ولقد بدأت أخشى عليك.

فقال لها: كل دين يأمر أتباعه بقتل المخالفين له وهو حال جميع الأديان فما الحكمة إذًا إلا إثارة الفتن وإشعال الخلاف والصراع بين أتباع الديانات المختلفة من قبل الآلهة والتي بمقدورها جعل الناس جميعًا أمة واحدة غير مختلفين؟

فقالت له: ليس لذلك خلقنا فقد خلقتنا الآلهة لكي نكون جميعًا صالحين ولكن الشياطين يريدون الشر للأخيار.

فقال لها: هذا مجرد ظن حسن ولكن الآن أنتِ فهمت مقصدي فقد تمنيتِ ذلك وقلته بلسانك وهو أننا خلقنا لكي نكون جميعًا صالحين، لكن الواقع هو عكس كلامك فالآلهة تبغي وجود الخلاف ولا تبغي الصلاح للجميع حتى تتم كلمتهم بتعذيب الجميع في أرض العذاب الأبدي دليل ذلك وجود الشياطين فما سبب وجودهم من الأساس وكان بالمقدور عدم السماح لهم بالقيام بأفعالهم الشيطانية.

فقالت: الآن فهمت فمن الممكن أن تجعل الآلهة الناس جميعهم أخيارًا صالحين ولكنها لا تريد ذلك في الواقع.

فقال: وكيف يكون الخلاص؟ أهو أناني فيظن كل واحد أنه قد اهتدى بنفسه ولا يهمه مصير الآخرين أم خلاص جماعي يقف الجميع معًا بقول وعمل واحد لخلاص من مصير مؤلم محتمل؟

فقالت: الخلاص الجماعي ذلك أفضل.

فقال: وما الوسيلة حينئذ؟

قالـت: التمنـي هـي الوسـيلة الوحيـدة والمتاحـة فالأمـاني والأحـلام السعيدة هـي الحـل الأقـوم لتقريـر الأقـدار والمصائـر إذا كان مـن الممكـن تحقيقهـا.

فقال: ومن سيحققها حينئذ؟

قالـت: الآلهـة نفسـها حتـى تزيـل عنهـا مـا قـد وصفـت بـه ومـا لحـق بهـا مـن سـوء ظـن في تعاملهـا مـع المخلوقـات في الواقـع.

فقال لها: الآن قد فهمتي مرادي وأصبحتِ في صفي.

فقالت: وإذا لم تتحقق؟

قـال: سـتتحقق كـوني عـلى يقـين، فعلينـا أيضًـا أن نتمنـى الأفضـل حتى في اختيارنـا للآلهـة التـي تتـولى أمرنـا والتـي تسـتجيب لأمانينـا المشروعة.

قالـت: ولكـن مـن الصعـب أن يتفـق جميـع النـاس عـلى مثـل مـا قلـت عـلى الأقـل في أيامنـا هـذه.

قـال: سـيأتي يـوم حـين تتـم كلمـة الآلهـة بعـذاب الجميـع في أرض العـذاب الأبـدي بكلمـة أخـرى بنـاءة للخـير والسـعادة الأبديـة ومدفوعـة بأمـاني النـاس إذا كانـوا صالحـين نابذيـن لـكل صراع وتسـلط وخـلاف. كـوني عـلى ثقـة ببلـوغ هـذا اليـوم عـن قريـب.

رحلة إلى الجنوب

كان أكثر ما يشغل بال توران هو اطمئنانه على سلامة أخيه حوران من أن تطاله يد مردوخ وملائكته وأبصارهم، وبعد أن تذكر توران قيامه من الأموات ومقابلة الآلهة وترحيبهم به وتغير مادته وطبيعته كإله معهم ومعرفته لعلوم الآلهة وعرض حليلة كرفيقة له وإعادة أخيه حوران إلى الحياة وإرساله رسائل إليه كي يستطيع التكيف في ذلك العالم الغريب عنه الذي بُعث فيه عن طريق الوحي المباشر منه والإغداق عليه بالحُلي والذهب من كنز الآلهة المخبأ في جزيرة في عالم الإنس فكان بذلك حوران من أثرى الناس في زمانه وأغناهم في مكانه.

وبعد أن اطمئن توران بأن أخيه يعيش في أمان بعد أن أسكنه قصرًا منيفًا بعيدًا عن أعين مردوخ ومن معه ومن تحت سلطته، أقدم توران على زيارة أخيه بعد أن تذكر ما حدث رغبة منه في أن يراه فقط ولو من بعيد لأن حوران لن يتعرف عليه.

أعد توران عدته وجهاز سفره وودع زوجته بعد أن أقنعها بأنه ذاهب إلى تجارة مربحة، وكان في الطريق دائم التفكر وجل ما يشغل تفكيره هي ذكرياته في هيكل الأرباب عندما كان ربًا معبودًا والعلوم التي تعلمها حينها وأنه أصبح لديه من العلم ما قد خفي عن

الأكثرية ومنها عدم إحراق النار له وعن عودته إلى حليلة قبل نهاية هذا الشهر كي يستزيد علمًا.

ثم سار في ركب قافلة تقوم برحلتها إلى بلاد بعيدة عن موطنه ومسكنه ورأى أناسًا كثر بمرور القافلة على بقاعٍ كثيرة تختلف عاداتهم وأعرافهم عما تعودت عليه عينا توران وسمعه ويدينون بأديان شتى، فرأى في قرية من القرى تماثيل لمعبودين لم يكن يعلمهما أو ربما قد سمع عنهما من قبل هما بعل وعشتار ورأى في قرية أخرى آلهة أخرى وهم اللات والعزى وهبل، فتعجب لاختلاف أسماء الآلهة في كل قرية عن القرى الأخرى، ثم رأى ذلك البئر الذي كان يتجمع عليه الناس كما رآه في منامه من قبل فخرج عن مسيرة القافلة وتوجه جنوبًا إلى حيث البئر الآخر المهمَل وحينما أبصر ذلك بعد مسيرة نهار كامل فرح فرحًا شديدًا إذ أنه قد رأى تلك الأماكن في الواقع كما رآها في المنام واستبشر لدنوه من أخيه وقربه إلى حيث يسكن، ثم اقترب أكثر فرأى ذلك القصر العظيم المحاط بأشجار الكافور والصنوبر والغرقد والنخيل المثمرة ثم وجد طائفة من الناس على أبواب القصر، ولما اقترب منهم علم بحقيقة أمرهم فوجدهم فقراء ومساكين يلتمسون العطايا والمساعدات من قبل رب القصر وعظيمهم حوران فدخل بينهم وصنع من نفسه كأنه واحد منهم يرجو المساعدة لكي يدخل إلى ذلك القصر وحتى يرى أخيه وبينما هو وسطهم انفتحت البوابة الحديدية وأصدرت صريرًا عاليًا، ثم دخل الفقراء ومعهم توران إلى داخل القصر وكان توران سعيدًا لرؤيته ما يتنعم فيه أخيه حوران،

ثـم جـاء كثـير مـن الخـدم يحملـون ألوانًـا مـن الأطعمـة والأكسـية والمـؤن ثـم بـدأوا يوزعونهـا عـلى الفقـراء بالتسـاوي فاضطـرب تـوران لعـدم رؤيتـه لأخيـه حـوران وحينـما قدمـت إليـه المسـاعدات قـال:

لا آخذها إلا من صاحب هذا القصر بنفسه.

فامتنع عن أخذها إلا من بعد أن يرى أخيه، وقال لهم:

إني أريد مقابلة صاحب هذا المال ومحادثته.

فاسـتأذن أحـد الخـدم لمقابلـة هـذا السـائل لسـيده حـوران، ثـم جـاءت الموافقـة وجـاء الخـادم إلى تـوران قائـلاً لـه:

سـيأتيك سـيدي بعـد قليـل، وكان سـيدهم حـوران قـد أمرهـم إذا طلـب سـائل مقابلتـه بـأن يبلغـوه ولا يخبئـوا ذلـك عنـه ونهاهـم بـألا ينهـروا أي سـائل قـط.

وكان تـوران في تشـوقه كأنـه عـلى نـار أحـر مـن الجمـر المشـتعل، ثـم جـاءه حـوران وهـو في أفخـم ثيابـه وأحسـن طلعـة وأبهـى صـورة، فيقـول تـوران في نفسـه عـن أخيـه وقـد علـت وجهـه ابتسـامة كبـيرة ظهـرت منهـا نواجزه:

(آه يـا أخـي أراك حاليًـا أكـبر منـي سـنًا لكنـك لا تعلمنـي فتلـك هـي ملامحـي الآن، ألا تذكـر ماضينـا حيـث كنـا صغـارًا وأيـام شـبابنا في عـالم آخـر، ألا تذكـر حـين كنـت صغـيرًا تمسـك بيـدي خائفًـا مـن عـارض عارضنـا وكنـت أحـاول أن أقـوم بـدور الأخ الأكـبر عـلى أكمـل وجـه).

ابتسـم إليـه حـوران حـين جـاءه لمـا رأى تلـك السـعادة في وجـه هـذا السـائل، ثـم قـال لـه تـوران:

أراك تعطي الفقراء مما أعطتك الآلهة، ألا تعطيني شيئًا.

فرد عليه: كم يكفيك من المال ليغنيك عن سؤال الناس؟

قال: لا أريد مالك ولكنى أريد شيئًا آخر.

فتابعه وقال: إذًا ماذا تريد؟

قال: أريد أن أطرح عليك سؤالاً وأن تجاوبني بكل صراحة وصدق.

رد عليه قائلاً: لك ذلك، ما هو سؤالك؟

فقـال: أي إلـه أعطـاك مـن عطايـا الآلهـة وكيـف سـمح باقـي الآلهـة بذلـك لهـذا الإلـه؟

فقال: هذان سؤالان.

ثم قال له توران: لو تكرمت أجب عليهما.

فقال: لك ذلك، أتعلم بأمري إذًا؟ فرد عليه: نعم.

ثم قال له: ومن أطلعك؟ فقال له: أطلعني الذي أعطاك.

فـرد عليـه حـوران: إنـك لمـن الصالحـين ولكـن جـواب سـؤالك هـو في الحقيقـة لا أعلمـه ولكنـي أظـن أن هـذا الإلـه هـو أعظمهـم.

فقـال لـه تـوران: إني أعتقـد بأنـه لـو كان في السـماء أكـثر مـن إلـه لاختلفـوا فيـما بينهـم وإني أظنـه إلهًـا واحـدًا فهـذا أقـرب إلى الصواب والرشـد.

فـرد عليـه حـوران: أصبـت لكنـي لا أبـوح بذلـك أمـام العامـة مـن النـاس، فمـن أعطـاني هـو الإلـه الواحـد.

فقـال لـه تـوران: أتمنـى لـك كل السـعادة الآن وفي هـذه اللحظـة وإلى مـا بعـد ذلـك، السـلام عليـك مـن الآن فصاعـدًا.

فحيـاه ورد عليـه السـلام قائـلاً: السـلام عليـك وداعًـا أيهـا الرجـل الصالـح.

فقـال لـه تـوران: وداعًـا، ثـم قـال في صـوت خافـت: وداعًـا أخـي العزيـز.

ومـا أخفـى تـوران عنـه حقيقتـه إلا لأنـه لم يكـن ليصدقـه ولقـد علـم تـوران أن هنـاك سـبيل لخـلاص أخيـه في أمـره واعتقـاده مـن سـطوة الآلهـة وأنـه عـلى صـواب في ذلـك الاعتقـاد لأن ذلـك السـبيل هـو الأفضـل لـه كـما رجـى لـه فـلا يـأسره مـردوخ أو أحـد ممـن معـه، فـإن الاختـلاف البـارز في تعـدد الآلهـة يتبعـه سـبيل للتخلـص منهـم لتعددهـم واختلافهـم الـذي هـو أمـر قريـب الحـدوث فيـما بينهـم، ثـم قـال تـوران في سريرتـه: هـذا هـو السـبيل الوحيـد الآن للتخلـص مـن تعـدد الآلهـة المختلفـة فيـما بينهـم، ويبقـى أن تتوافـق إرادة الجميـع عـلى أمـر آخـر هـام جـدًا للخـلاص مـن كل ألم وعـذاب بأنـه ليـس للخـلاف وجدنـا وأننـا لـن نختلـف فيـما بيننـا بعـد ذلـك، ففـي اليـوم الـذي يتـم فيـه الاتفـاق عـلى ذلـك سـيكون أثـره مفعـولاً حينهـا وسـيلقي الإلـه الحـق كلمتـه الأحـق بالخـلاص الأبـدي.

ثـم قـال تـوران لنفسـه: هـذا مـا تتمنـى بـه أنـت فقـط أيهـا الحـالم

والنـاس لاهـين في شـؤون دنياهـم، إن هـذا حلـم أقـرب إلى الخيـال فالصراعـات تأجـج في نفـوس النـاس البغـض والكراهيـة رغـمًا عنهـم، ربمـا هـذا سـيحدث ولكـن ليـس في هـذا الزمـان ولا مـع أنـاس كأمثـال هـؤلاء لكنـه سـيحدث في وقـت مـا، لـدي شـعور كبـير بذلـك أنـا واثـق مـن ذلـك.

****

وفي ليلـة قمـراء تهيـج فيهـا النفـوس وبعـد عنـاء يـوم عمـل طويـل اسـتقر تـوران ومكـث في بيتـه في هـذه الليلـة وبعـد أن أعـدت لـه زوجتـه الطعـام وبعـد أن أكل منـه وشـكر حسـن صنيعهـا طلـب منهـا بعضًـا قليـلاً مـن شراب نبيـذ التمـر فأعطتـه فـشرب منـه وظـل يرتشـف منـه بعضًـا قليـلاً وهـو يحـدث زوجتـه مداعبًـا لخصـلات مـن شـعرها عـما أنهكـه في عملـه بحقلـه وعـن المـدة المتبقيـة لحصـاد غرسـه قائـلاً لهـا:

إن وقـت الحصـاد قـد شـارف عـلى الانتهـاء فلـم يتبقـى إلا أسـابيع معـدودة.

فقالـت لـه: لقـد أسـعدتني بكلامـك هـذا إذًا فقـد قـارب غرسـك عـلى إتيـان غلتـه نتيجـة عملـك الطويـل والشـاق.

ثـم سـألته: هـل قابلـت تلـك المـرأة التـي حدثتنـي بهـا مـن قبـل مـرة أخرى؟

فأنكـر قائـلاً: كلا لم يحـدث. فقالـت: إني أشـعر بأنـك تكـذب. ثـم صمتـا قليـلاً فتذكـر تـوران شـيئًا فقـال لزوجتـه: أيـن كنـتِ في نهـار هـذا اليـوم؟

وكان سؤاله كذلك إذ حضر إلى البيت ولم يجدها بداخله، فظهرت عليها علامات التوتر فردت عليه وكان صوتها خافتًا ومتهتهًا:

كنت.. كنت لدى حكيم القرية.

فانتبه لها ثم اعتدل في جلسته ونظر إليها بنظرات حادة وقال لها:

وما أذهبكِ إلى هناك؟

فقالت له وهي ترتجف: إني ذهبت إليه لأفتصد.

فتحركت منه جوانبه وانتفضت عروقه في عنقه وقال لها غاضبًا:

أتعريتِ أمامه؟ فقالت له خائفة: لكي يعالجني.

فقال لها وقد ارتفع صوته: يعالجكِ من ماذا؟

فقالت: من العقم ولقد نويت بإعلامك اليوم أو غدًا، وإن عليك الذهاب إليه أنت أيضًا لكي تفصد.

فقال والغضب يسيطر عليه موبخًا لها: أولم ننته من هذا الأمر؟

فقالت: إن غريزة الأمومة هي التي تحركني وإن عليك أن تفصد كذلك فهذا العلاج الجديد له بالغ الأثر ونتيجته قد تكون فعالة.

فصرخ في وجهها: لقد مللت منكِ ومن أفعالك وكرهت يوم أن رأيتك.

فقامت إيشاهات وهي تمسح دموعها وأعدت ثيابها وهي حزينة ومتألمة وعزمت على الذهاب إلى بيت أحد من أهلها.

فقال لها: لو خرجتِ من هذا الباب وذهبتِ إلى أهلك فلن أرجعك.

فهمت بإتمام إعداد ثيابها غير مهتمة لقوله لكي تذهب خارجة وهي ما زالت تبكي بحرقة وتداري دموعها ولم تتفوه ببنت شفه حتى إذا أقدمت على الخروج بالفعل قال لها: لن أدعكِ تذهبين. وقام وحاول منعها لكنها عنفته ثم لطمته فأراد صفعها ثم امتنع عن ذلك وقالت له غاضبة:

لقد فقدت صوابك من بعد أن سحرتك تلك المرأة وتغيرت أحوالك وطبيعتك ولن تنفك عن ذلك حتى تفقد كل شيء جميل في حياتك وأنا لن أقبل بمعاشرتك بعد اليوم، ثم خرجت.

فجلس توران وقد أفرغ الكثير من الخمر محتسيًا إياه بنهم ومسكتًا لغضبه الذي بداخله وقال: لقد زاد الأمر عن حده وبلغ ذروته، ها هو الخلاف يدخل بيتي دون إرادتي هذه أفعال الأرواح الشريرة وإرادة الآلهة التي تدعي الخير.

ثم قال في سريرته: كم تبقى من الأيام لكي يمر هذا الشهر؟ إني لا أجد أنيسًا مثل حليلة فهي تعي تمامًا ما أقول وتحدثني بما يروق لي وتعلم من حديثي ما أود قوله حتى قبل أن أقوله.

ومرت الأيام سريعًا وتوران يبيت لياليه وحيدًا حتى جاء اليوم الذي ينتظره، فهمَّ في تلك الليلة الذهاب إلى الكوخ حتى قبل أن يمضي النهار ثم ذهب فوجدها جالسة في انتظاره فجلس قريبًا منها، ثم قالت له:

إني سأقول لك خبرًا يحزنك. فقال لها: وما هو؟

فقالت حليلة: إن هذا اللقاء هو الأخير لنا معًا.

فحزن حزنًا شديدًا وقد ظهر هذا في صوته وهو يسألها عن السبب في ذلك.

فأجابته: لقد وعدت نفسي ووعدتك بألا أتركك وألا أنساك أبدًا وها قد نفذت وعدي إليك وذكرتك بأمور كثيرة كنت قد أنسيتها، وأن عليك من بعد لقاءنا هذا أن تنتبه إلى نفسك.

ثم سألها متلهفًا: وكيف ستصير الأمور من بعدك؟

فقالت له: ستعلم أنت بنفسك.

ثم نظر كل منهما إلى الآخر نظرة شوق وتملك وأحس كل منهما برغبته في الآخر خاصة أنه آخر عهدهما ببعض فتذكرا كيف كانا في هيكل الأرباب وكيف كانا يسعدان بعضهما، ثم قالت له حليلة وهي تمسك بيده وتلامس خدها بخده:

إني أعلم الآن فيما تفكر وترغب إليه.

واقتربت شفاهما إلى التقابل وهي تقول إليه:

إني أتذكر ذلك حين كنا في السماء لكم وددت بهذا منذ زمن بعيد.

فقال لها مازحًا: نعم منذ أن تركتني عند باب المعبد.

فقالت له هامسة: شششش كان هذا في صالحك ولا تنطق بكلمة

واحـدة فقبـل تـوران شـفتيها الورديتـين وجـاوزت يـده إليهـا فعانقهـا ونـال مـن جمالهـا وأتمـا سـكرات شـبقهما وفعـلا كـما فعـلا مـن قبـل غـير أن هـذه المـرة هـي الأخـيرة، فتركهـا وهـو حزيـن خارجًـا مـن الكـوخ مودعًـا إياهـا الـوداع الأخـير.

فأطالت حليلة النظر إليه وهو يغادر قائلة في هدوء:

لقـد عاهـدت نفـسي ألا أنسـاك وأن هـذا الـذي بداخـلي هـو جـزء منـك فقـد أخـذت منـك مـن لا ينسـني إيـاك أبـدًا ووضعـت يدهـا عـلى بطنهـا قائلـة:

الآن أنـت الـذي بداخـلي ابـن إنسـان سـتمكث معـي في السـماوات لتذكـرني بأبيـك فأنـت تشـبهه ولا تشـبه أحـدًا غـيره.

وفي مشـهدٍ آخـر عـاد تـوران إلى بيتـه بعـد لقـاءه الأخـير مـع حليلـة حزينًـا ومشـغول البـال بمصيره الـذي لا يعلمـه متسـائلاً عـن مـراد حليلـة بقولهـا سـتعلم بنفسـك، إن عليـه الآن مواجهـة الواقـع متفاجئًـا بأحداثـه ومواقفـه وحيـدًا، تـرى مـا يخبـئ الدهـر لتـوران بعـد ذلـك؟

سأصنع قدري

لقد مرت أيام وأسابيع مريرة على نفس توران وذات إحساس مريع فلم ترجع إليه زوجته ولم يرجعها إليه ولن يرى حليلة مرة أخرى بعد أن تركته مودعة إياه. كان توران يملأ جوفه كل صباح ومساء بنبيذ التمر ليسكر غصته ولينسى همومه وكان مشغول التفكير دائمًا فقام ذات يوم عازمًا على التوجه إلى حيث ملتقى النهرين ليرى ما يخبئ له قدره على صفحة الماء ولكنه لم يرى شيئًا فإن قدره ومصيره غير معلومين لا لديه ولا لأحد غيره وبالتالي ليس معلوم أيضًا لدى الأرباب لأنه كالمفقود الأثر بين الخلائق فلم يكتب له أو عليه أحداث أو أفعال مقدرة مسبقًا هكذا فطن توران لحقيقته وكان يقول في سريرته:

إني الآن كالجنين الذي لم يكن ليولد أو كالميت الذي انقطع عمله، لا أدري أهذا شيء جيد أم غير ذلك وإن كان جيدًا فهل يجب أن أكون سعيدًا لذلك أم لا؟

حتى إذا جن عليه الليل ترك هذا المكان إلى الأبد فقد علم الكثير منه من قبل ولم يعد في حاجة إليه فقد علم وتذكر سره المنسي، ثم ذهب راجعًا إلى بيته ففاجئه صديقه نصير بزيارته فرحب به ترحيبًا كبيرًا ثم سأله عن سبب مكوثه وحيدًا في داره قائلاً: مالي أراك وحدك، وأين زوجتك؟

فأجابه: لقد انفصلت عن زوجتي؟

فقال له حزينًا: ولما حدث هذا؟

قال: دبت مشاجرة بيننا فتركت بيتنا، وأبلغتني بعدم رغبتها في إكمال زواجنامعًا.فأدرك نصير أن صديقه في حالة نفسية سيئة فقال له:

أترك هذا الأمر لي فسوف أقوم بإصلاح الأمور بينكما.

فرد عليه مهمهمًا: لقد مر على ذلك أسابيع وما زالت تبغضني فقد قدمت مارًا على دار أخيها ورأيتها تقوم بعمل من أعمال المنزل فلما رأتني شاحت بوجهها نافرة مني ودخلت الدار وأغلقت الباب بعنف فتابعت سيري من بعد ذلك.

فقال له: انس هذا الأمر الآن، ألا ترغب في الخروج معي في رحلة صيد كعادتنا فأنا أدعوك لذلك؟

فرفض توران اقتراح صديقه هذا قائلاً: لا ليس لدي الرغبة في الصيد حاليًا.

فقال نصير له: لن أتركك في هذه الحال تأكلك الأحزان وتعصف بك الوحدة.

فأدار توران ظهره وقام متوجهًا إلى قارورة النبيذ ليفرغ منها وأعطى منها لصديقه ليشرب وليحتسي منها هو أيضًا، ثم قال له:

ألا تحدثني عن أخبار أهلك ومدينتك؟

فرد عليه: أنت تراوغني بسؤالك هذا حتى لا نتحدث فيما يخصك.

فقال معطيًا له قدحًا من النبيذ: خذ هذا الشراب وتعاطى إياه فإن معظم النساء يقمن بأفعال تظهر بها المشاكل وتتفاقم بأساليبهن وإني حقًا أفضل كوني وحيدًا أعزب على أن تكبلني امرأة وتقوض حركتي أو أن أضطر أن أواجه المشاكل من أجلها.

ثم شرب قليلاً وقال له مستكملاً لحديثه: دعك من هذا ألا تحدثني عن الكهنة في شأن خلاصهم الكاذب؟

فارتشف نصير بعض الرشفات من النبيذ الذي أعطى له ثم قال:

إن حال هؤلاء الكهنة عجيب فمنهم من قال إن إرادة مردوخ تكون على أساس الطاعة العمياء وأنه يحمل الخير لجميع الناس إن أطاعوه.

فقال توران معقبًا: هذا يعيب الآلهة ويساء بهم الظن في نظر أتباعهم لو نظروا بصدق إلى الواقع الأليم.

ثم قال نصير متابعًا: وقلة آخرون قالوا بأن مردوخ أراد أن يكون له حكم الآلهة منفردًا وألا يبقي معه إلهًا آخر بحيث لا يكون في السماء ولا في الأرض إله غيره، وأنه أراد ذلك ويستحيي من باقي الأرباب.

فقال له توران: هذا الرأي يجعل أتباع الأرباب الأخرى متنافرين ويحدث بينهم الكره والبغضاء ولا يدل على حكمة من مردوخ.

ثم سكتا قليلاً وقال توران: ألا تعلم رأي الصابئة تجاه هذا المصير الزائف؟

فقال له نصير: إنهم ينفون تمام النفي أن مصيرهم زائف.

فقال: وما حال المجوس في ذلك الشأن؟

فرد عليه: حالهم كحال الصابئة فالنفي هو قرارهم أيضًا.

ثم قال توران: إذًا لم يتفق أهل ملة واحدة حول مصير واحد.

فقال: بل اتفقوا جميعًا على الاختلاف.

وما السبب في ذلك؟ هكذا سأله توران.

فرد عليه: لأن عقائد هؤلاء أنانية يظهرون الخير ويبطنون التعالي والشر، ويتفاخر كلٌ فيما بينهم بما لديهم من آلهة ومن علم علمتهم الآلهة إياه.

فرد عليه توران: لو علموا علمًا فأولى لهم بأن يعلموا بأن التفاخر والتعالي من أسباب النفي من السماء عند الآلهة ولكن كل منهم يضعون أنفسهم في مكانة ومقام أعلى من الباقين، فالعقيدة عند كل أهل ملة تمنح ميزة أو أكثر لاتباع هذه الملة تجعلهم في مقام أشرف وأعلى من أتباع باقي الملل الأخرى.

ثم استكمل حديثه: هذا هو حال ملوك السماء تجاه أتباعهم مثلهم كملوك الدنيا وعبيدهم، عملٌ شرير خالص والبقاء في أرض الواقع لمن هو أقوى عددًا وعدةً وسلاحًا.

فقال له: كيف تكون هناك عدالة وفينا ملوك جبارين أعطتهم الآلهة الملك فهل تظن أن الآلهة عادلة في ذلك؟

فـرد عليـه بصـدق: لا عـدل في هـذا العـالم، هـذه هـي نتيجـة كل باحـث عـن الحـق والعدالـة.

وبعـد أن أنهيـا حديثهـما قـام تـوران مودعًـا صديقـه نصير الـذي وعده بزيارتـه عـن قريـب وعـن قيامـه بالصلح بـين تـوران وزوجته إيشـاهات.

****

وفي نهـار يـوم آخـر وبعـد أن أدى تـوران مهـام عملـه في حقلـه واطمئن عـلى زراعتـه وقـد قـرب وقـت الحصـاد قـام بزيـارة صديقـه نصـير الـذي رحـب بـه وقالـه لـه تـوران:

إني أخـبرك بنيتـي الانفصـال نهائيًـا عـن إيشـاهات، خاصـة مـن بعـد أن أبلغتـك برفضها العـودة إلي.

فقـال لـه حزينًـا: لقـد حاولـت أن أصلـح بينكـما ولكنهـا رفضـت ولم أبلغـك ذلـك بنفـسي منـذ أن قمـت بمحاولـة الحـل الـودي ولكنـك فطنـت إلى ذلـك.

فقـال لـه: أنـا أعلـم ذلـك فحـين مـر الوقـت ولم تـزورني كـما وعدتنـي علمـت بإصرارهـا عـلى الرفـض.

فقـال نصـير متأسـيًا: إن هـذا الأمـر يحزننـي للغايـة، خاصـة مـن بعـد هـذا العمـر الـذي قضيتـماه معًـا.

فـرد تـوران: لا تحـزن لقـد كانـت تلـك رغبتهـا، وإن لهـا الحـق في الحصـول عـلى طفـل لهـا.

فقال له: ربما أنك لست العقيم بل من الممكن أن تكون هي العاقر.

فرد عليه: لقد اتفقنا على الاستمرار في زواجنا من قبل بدون التفكير في الإنجاب ولكن غريزة الأمومة لديها كانت هي السبب في عدم نسيان الأمر، وإني أتمنى لها كل سعادة.

ثم قال توران مردفًا: ولقد جئت أيضًا لأبلغك بقرار قد أخذته.

فسأله نصير: وما هو هذا القرار؟

فرد عليه: لقد واتتني فكرة أعتقد أن في تنفيذها سبيلاً جيدًا لي، كما تعلم أن المكوث في أرض لا أجني منها غير الذكريات المؤلمة التي لا أتحمل تذكرها خاصة بعد انفصالي عن إيشاهات وأيضًا تعرض المغيرون على قريتي كل فترة من الزمن هو أمر ليس بحكيم.

فقال له نصير: أتريد أن تغير إقامتك لتسكن في المدينة هنا؟

فرد عليه: نعم ولكن ليس في المدينة هنا.

فقال له متسائلاً: وإلى أين تريد أن ترحل وتهاجر.

فقال له: إني سأرحل من أرض شنعار مهاجرًا إلى أرض أخرى بعيدة إلى الجنوب لأبدأ هناك حياة جديدة.

فقال له: وهل أنت مصمم على ذلك؟

فقال له: نعم وأتمنى ألا يحزنك هذا فسوف أقوم بزيارتك حينما تتاح لي الفرصة.

فقال نصير: أنت تفائلني وتحاول أن تكون لطيفًا معي، وأعتقد أن هذا هو آخر لقاء بيننا.

فقال له: كلا وإنني سأقوم بزيارتك أقسم بذلك.

فقال له: إذن لنتظاهر بذلك.

وعندما قرر توران الذهاب إلى القرية وترك المدينة وصديقه قال له مودعًا:

إلى اللقاء، فرد عليه صديقه نصير: الوداع يا صديق العمر.

لقد كان هذا هو القرار الذي نفذه توران فألقى نظرة على معبد الأرباب الكبر، ثم أسر من الضحكات سخرية على واقع العابدين لتلك الأصنام قائلا في سريرته: يهربون من همومهم إلى خيبة أملهم، لا خير يرجى مما تفعلون لو كان في هؤلاء الآلهة من خير لاستجابوا لكم بمنع الشر عنكم الذي تعانون منه بداءة، إنكم لفي ضلال مبين.

بمجرد أن حصد توران ثمار أرضه وجمع محصولها حتى قايضها بالفضة وباع بيته وحقله مقايضة بالفضة، ثم أعد عدته للسفر مهاجرًا بعيدًا عن موطنه وعن قريته التي نشأ وتربى وعاش أكثر أيام عمره فيها، واختار بلدًا قريبًا من قصر أخيه حتى يتمكن من رؤيته ولو من بعيد فاستقر في هذه البلدة واتخذ فيها بيتًا وتعلم لغة أهلها وعلمهم بأساليب الكتابة ولم يكونوا ليعلموا لغة مكتوبة من ذي قبل فكان يأتيه بعض من أهل القرية يتعلمون منه أساليب الكتابة على ألواح الطين وكان يقوم بتربية الماعز والضأن وكان يعتني بأزهار وورود

كانـت تنبـت في أرض هـذا الـوادي والجبـال التـي حولهـا وكان يزرعهـا ويراعيهـا بجـوار بيتـه وكان يأتيـه نفـرٌ مـن أهـل البلـدة يوميًـا ليتعلمـون منـه فاشـتهر فيهـم بروايـة القصـص وكان مـن بينهـم صغـير أحـس تـوران بشـدة ذكائـه وكان يدعـى «عُطـير» فـكان يناقشـه فيـما يحكيـه مـن قصـص وحكايـات أخـرى مـن أرض شـنعار. فـكان يقـص عليهـم قصـة ذلـك الرجـل الـذي اسـتوقد نـارًا في عـالم بعيـد فقامـت الآلهـة برفعـه مـن بعـد إحيائـه مـن الأمـوات وجعلـه واحـدًا منهـم ثـم مـا لبثـوا أن انقلبـوا عليـه وقـرروا إبعـاده عـن هيـكل الأربـاب إلى أن جـاء مـن أنجـاه مـن العـذاب والنفـي الأبـدي وهـو في الواقـع كان ينفـي حقيقتـه عنهـم، وأيضًـا عـن ذلـك الرجـل الـذي أكرمتـه الآلهـة ووهبـت لـه كنزهـا المخبـأ في جزيـرة بعيـدة عـن السـاحل وكان أكـرم النـاس وأعظمهـم وأغناهـم، وعـن قصـة تلـك المـرأة التـي أحبـت وأخلصـت ووعـدت وأوفـت بوعدهـا تجـاه رفيقهـا وعلمتـه أن يتذكـر مـا طمـس عنـه وعلمتـه أن الخـلاص الحقيقـي لبنـي البـشر يكمـن في تمنـي الأمـاني السـعيدة والبعـد عـن الخلافـات والصراعـات أيًـا كان أسـبابها وعمـل بنصائحهـا.

وفي مشـهد جديـد في هـذه القريـة وبعـد مـرور ثـلاث سـنوات مـن مكوثـه فيهـا وأثنـاء حـواره ذات مـرة مـع بعـض النـاس الذيـن كانـوا يسـتمعون إلى قصصـه وكان مـن بينهـم ذلـك الصغـير «عطـير»، الـذي سـأله عـن قصـة ذلـك الرجـل الـذي كان بينـه وبـين الآلهـة صراعًـا ولكنـه انتـصر عليهـم فقـال لـه:

وكيف انتصر ذلك الرجل على الآلهة؟

فقال له: بالهروب من العذاب المهيأ له.

ثم رد عليه عطير: ولكن الهروب ليس انتصارًا حقيقيًا.

فسكت توران برهة ثم قال: معك حق فإن الهروب في هذه الحالة ليس انتصارًا بمعناه الدقيق، ولكني أعلم أنه تعلم أن يتمنى الأمنيات السعيدة وأن يعلم من حوله كيف يتمنون الأماني السعيدة وكيف ينبذون كل صراع أو خلاف حقيقي بينهم.

فقاطعه الصغير: كيف يتمنى وهو غائب عن الأنظار وخائف من غضب الآلهة، لو كنت مكانه لتمنيت أن أهزم خوفي من الآلهة أولاً وأن أواجههم بكل شجاعة في العلن.

فأطرق توران مليًا، ثم نظر إلى السماء نظرة واسعة متأملاً قول ذلك الصغير ثم طأطأ رأسه قائلاً له: إنك على حق ... إنك على حق، ثم قال فيمن حوله:

إن هذا الصغير علمني شيئًا كان خفيًا عني فإني بإيماني سأصنع قدري وبأحلامي سأحقق مصيري وبإرادتي الحرة سأفعل ذلك فإن لي مصيرًا أجهله ولكم مصائر تجهلونها وقد تجهلها أيضًا تلك الآلهة المراوغة.

إن مصائرنا الآن كما نتمناها إلى الأفضل دائمًا وإن حقيقتي التي كنت أخفيها سأعلنها أمام الجميع.

ثم قال بصوت جهوري كاشفًا سره: أنا هو توران هذا الرجل الذي استوقد نارًا في الظلمات ورفع مع الآلهة الكبر في هيكل الأرباب، أنا هو الرجل الذي هرب من مصيره الذي فرضه عليه كبيرهم وقد صنع مصيرًا لنفسه أفضل وهو الآن قادر على مواجهة إفشاء سره أمام الجميع.

فسكت الجمع من الحاضرين ودارت بينهم بعض الهمسات وضحك بعضهم سخرية منه ظنًا فيه أنه قد فقد عقله، ثم انصرفوا عنه ولكن سرعان ما أذيع هذا الأمر كالنار في الهشيم بين أهل بلدته.

وفي صباح اليوم التالي بينما كان توران يحلب عنزاته إذ جاءه عطير فحياه تحية قومه ثم رد عليه توران التحية وسأله:

ما جاء بك في هذا الوقت المبكر يا عطير؟

فقال له: إن أهل البلدة يظنونك مجنونًا قد أفقدتك القصص التي تحكيها عقلك.

فقال له سائلاً: وهل تظن ذلك؟

فرد عليه عطير: كلا، ولكني أريد أن أعلم كيف كان إحساسك حينما كنت ربًا من الأرباب؟

فقال توران: كان ذلك مثل أقوى إحساس قد تراه وتشعر به في نومك.

فسأله: أهو إحساس جميل إذن؟

فرد قائلاً: كأفضل إحساس من الممكن أن تشعر به في حياتك.

فسأله سؤالاً آخر: وكيف كان شكلك، أكان يشع الضوء منك؟

فقال ضاحكًا: نعم هو ذلك.

ثم سأله: وكيف كانت الحياة الخالدة في السماء؟

فرد عليه: الحياة في النور السماوي مطمئنة إلى حد بعيد فكل ما استطعت تخيله من المتع كان يحدث بمجرد التفكير فيه.

فقال له عطير: وكيف كنت تنظر إلى أهل الأرض؟

قال: كمن يريد من الناس أن ينظر إلى الأسماك في عمق البحر.

فضحك عطير قائلاً: إن هذا أعظم مما كنت أتخيل.

ثم جاءت امرأة من بعيد تنادي على عطير، فقال له توران: اذهب إلى أمك فإنها تناديك.

فقال له عطير وهو يجري ناحية أمه: وداعًا أيها العم توران.

فقال له: وداعًا، وبعد ان انتشر خبر توران بين أهل بلدته، ما كان أمام توران إلا مواجهة أسوأ مخاوفه وهي مواجهة مردوخ ولكنه وحيدًا هذه المرة.

فقد علم ملائكة مردوخ بما قاله توران ونسبه إلى نفسه وأبلغوه إلى كبير الملائكة محاقيل الذي سرعان ما توجه إلى ربه قائلاً له:

سيدي مردوخ العظيم لقد وجدنا توران.

فضحك بقوة ثم قال لمحاقيل بقوة: لقد سقط في أيدينا ذلك الملعون.

ثم سأله مردوخ: فأين وجدتموه؟ فرد عليه: في أرض اليمن.

ثم قال له محاقيل: ماذا نصنع به سيدي مردوخ العظيم.

فقال له لا تلقوه في أرض الجحيم والعذاب الأبدي هذه المرة، فإن النار بدأت تخونني مع أعدائي في أرض شنعار ولكن اذهبوا به وألقوه في أرض الظلمات واسجنوه فيها إلى الأبد.

ثم صاح محاقيل صيحة كبرى لتسمعه كل الملائكة قائلاً:

اقبضوا على توران الملعون وألقوه في أرض الظلمات ليسجن فيها إلى الأبد كما أمر سيدي مردوخ الجبار.

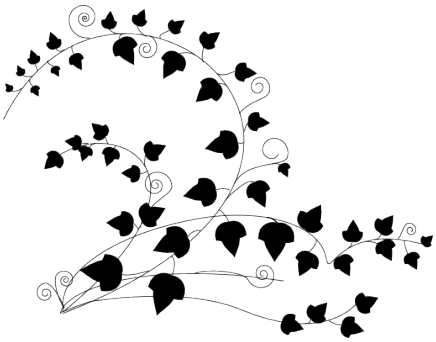

الخاتمة

نهض توران ذات ليلة مفزوعًا من نومه تتلاحق أنفاسه بشدة، فلقد رأى في منامه رؤيا حديثة فلما هدأت نفسه واستقرت علم بأن مردوخ قد علم بأمره وعرف مكانه وأدرك توران تلك الحقيقة وأنه بين اللحظة والأخرى سيتم إلقاء القبض عليه وإلقاءه في أرض ظلامية من قبل ملائكة مردوخ وهم مأمورين بذلك منه. فهب توران واقفًا ونظرات عينيه الحادة شاخصة موجهًا بصره نحو السماء وهو ممتلئ بالقوة والشجاعة الكافيتين لمواجهة هذا الموقف الرهيب رغم ضعف مادته تجاه ما يواجهه وصرخ قائلاً لن تنل مني أيها المارد المدعو مردوخ!

وأول ما تذكره توران كان فأسه الذي ظل محتفظًا به منذ أن ترك العمل بالزراعة في أرض شنعار فاقترب من فأسه وأمسك به بقبضة قوية ثم بدأ يمشي خارجًا من بيته ناظرًا إلى موقع نجمه في السماء الذي فوجئ بعدم وجوده في موقعه من السماء. فذهب باتجاه البئر المهجورة وهو ممسك بيده غرسًا، وما إن وصل إلى حدود تلك البئر قام بحفر حفرة بفأسه ووضع فيها الغرس الذي بيده ثم روى هذه النبتة ونظر إلى السماء وأطال النظر فيها ثم عزم على الرجوع، وما إن وطأت قدماه أطراف البلدة إذ وجد كأن ضوءًا شديدًا

يقترب منه فوضع يده أعلى عينيه ليرى ما يقترب منه فسمع صهيل خيل وأدرك حينها أنه قد اقترب موعده فأحس بيدين قويتين على كتفيه تقبضان عليه وذهبت به إلى نفق طويل مظلم ثم نظر فوجد نفسه في عالم آخر ظلامي لا فيه شمس ولا قمر سماؤه كالحة السواد على الدوام ولا يضئ فيها مضيء إلا البرق مجرد برق متتابع ومتوالي وكان يسمع أصوات لصرخات واستغاثات وكأنه الجحيم ولكن من نوع آخر فكل من في هذا العالم مخلدون لا يموتون ولا يأكلون ولا يشربون لأنه لا يوجد ما يطعمهم بل يتجرعون آلام الجوع والعطش وأوجاع الأمراض وأسقام النحافة الشديدة والبرد وفوق كل ذلك فإنهم يفقدون أبصارهم وتعمى عيونهم وكلما يبرق برق يبصروا إلى أين يذهبون أو يتجمعون حتى تنغلق أعينهم فيظلون أكَفاء كل في مكانه.

فنظر توران إلى أحدهم أثناء تتابع البرق وكان هزيلاً جدًا يصرخ بأعلى صوته طالبًا الرحمة من مردوخ وكان يناجيه وينادية قائلاً:

سيدي وإلهي مردوخ العظيم إني أتوسل إليك إنني عبدك المطيع زار، كما أمرتني فعلت كيف يحدث لي هذا وأنا خادمك؟ لقد أمرتني أن أمحو أثر توران ففعلت كما أمرتني.

فانتبه توران إلى ذلك القول وهو شاخص البصر وما زال البرق يبرق فتوجه إليه وأمسك بشعر لحيته قائلاً له:

ماذا فعلت بشأن توران؟

وكان الرجل قد فقد بصره تمامًا وانتفخا جفنيه وأسبلت عيناه

مـن الدمـوع فـصرخ وهـو يحـاول أن يدفـع بيديـه الضعيفتـين الـذي يمسـك بـه لكـن عـلى غـير ذي نفـع أو فائـدة قائـلاً لـه:

اتركني وشأني. ثم استكمل ندائه لمردوخ قائلاً:

مـولاي مـردوخ العظيـم إلهـي وإلـه الجميـع إننـي عبـدك المطيـع زار لقـد بذلـت كل جهـدي لأشـعل نـارك في أرض الـبن ولأمحـو ذكـر مـن سـواك.

فضحك توران وهو ما زال ممسك برأسه قائلاً:

مـولاك مـردوخ العظيـم؟ انظـر مـاذا فعـل بـك مـولاك، ترجـو منـه الرحمـة بعـد أن خدمتـه وأطعتـه لقـد تـركك وسـجنك هنـا في هـذا العـالم لأنـه لا يـترك لـه منافسًـا عـلى غـير إرادتـه، بالتأكيـد لقـد عبـدك قومـك الذيـن كنـت فيهـم مـن بعـد موتـك لـذا فقـد أمـر بسـجنك في هـذا العـالم إلى الأبـد!

ثم قال له وهو يصفعه:

وتفتخـر بمحـو أثـر وذكـر تـوران في العـالم الـذي كان سـيده وقدسـه فيـه قومـه.

فصرخ زار قائلاً: اتركني ابتعد عني من تكون أنت أيها المتغطرس؟

فدفعـه تـوران فأوقعـه أرضًـا مـن بعـد أن أفلـت قبضتـه مـن عليـه قائـلاً لـه:

أنـا أسـوأ أعمالـك، ثـم تركـه وهـو يبـكي ويـصرخ ويتحسـس مـا حولـه طالبًـا الرحمـة مـن مـردوخ مـرة أخـرى، ثـم قـال تـوران وهـو يبتعـد عنـه:

يكفيك ما أنت فيه من ذل.

ثم برق البرق مرات أخرى متتالية وكان توران يجول في موقعه الذي هو فيه ليرى مواضعه فلم ير شيئًا لا نبات ولا حيوان ولا مخلوق يذكر غير المنفيون المعذبون ورأى جبالاً مرتفعة وأودية منخفضة فسعى وغدا من مكان إلى آخر مرات كثيرة وأوقاتًا طويلة حتى نظر فوجد نهر جارٍ فسار بمحاذاة شاطئه لعله يجد نبات فمشى كثيرًا بما يوازي أيام وأسابيع لكنه لم يجد ولو نبتة من عشب ثم غرف غرفة بيده من ماء النهر فذاق منه مذ أن رآه أول مرة فكان مذاقه مرًا حمضيًا ليس بعذب ولم تزول عنه مرارته رغم أنه نهر جارٍ ثم أكمل سيره حتى وجد سهلاً منخفضًا به أرض طينية بجوار النهر ففتش عن نبات فيها فلم يجد، إنه مسجون في أسوأ مكان قد يخطر على البال وكاد ألم الجوع والعطش أن يقطع لحم جسده فجلس مكانه وما يزداد الألم عنده إلا آلامًا كثيرة وأمسك بصخرة ذات طرف حاد وجلس وأمامه لوح حجري كبير فقام بنحت كلمات يدون فيها الأحداث التي مر بها، لقد بدأ يفقد بصره فكلما أبرق البرق يخطف بصره ويضعفه جزئيًا، ولأول مرة يبكي توران منذ طفولته وتذرف منه الدموع فهو أسير شجاعته وأحلامه النبيلة حتى انغلقت عيناه تمامًا وصار كفيفًا لا يرى أي شيء كمن سملت عيناه فمكث في مكانه غير قادر على الحركة وكان يتحسس الأرض الطينية متمنيًا لو أن تنبت أي نبات ولكن على غير جدوى.

وقد مر من الوقت الطويل ما يفقد المرء به أعصابه وتخف به العقول، أي عذاب هذا الذي يتعذبه توران!

ثم سمع ذات مرة من داخله صوتًا لطفل صغير وهو يقول: أمي .. أمي

فظن أن ذلك هو الهذيان من أثر كثرة الآلام التي يفقد بها صوابه، ثم سمع الصوت مرة أخرى يقول:

«أمي انظري ها هي شجرة أبي تنمو كما رأيناها سويًا في السماء منذ أن غرسها أبي بنفسه في الأرض، إن أبي يا أمي شخص عظيم».

فأفاق توران من آلامه متنبهًا لهذا الصوت الصغير الذي يقدسه عن بعد وعقل ما هو إنه صوت ولد له يحيا في السماوات. إذن فهو ابن حليلة عندما قابلها آخر مرة في الكوخ فانفرجت أساريره سعادة وفرح فرحًا شديدًا إن له ولد يحبه حبًا شديدًا كما علمته أمه وأنه ليس بعقيم، لكن أكثر ما أسعد توران هي تلك الشجرة التي غرسها في حدود عالم آخر لا تطوله يد مردوخ، وقال في نفسه الآن قد جاء الوقت طالما أن الشجرة نبتت هناك حيث غرستها فستنمو ههنا مثيلتها في هذا العالم.

ومر وقت طويل وتوران ينتظر صابرًا لكي يجد شجرته في هذا العالم الظلامي وهو هائم بائس يتحسس خطواته بيديه أملاً أن يلمس تلك الشجرة في وقت ما حتى اشتدت آلامه، وفقد الأمل مرة أخرى في العثور على شجرة حياته وبعد أن مر ما يقارب من عشرات بل ربما

مئات السنين بإحساس السجين وتوران يبحث عن شجرته قد سمع ذات مرة صوتًا يشبه صوته في ذهنه يقول:

«أبي العزيز لقد حان الوقت لأشعل النيران في شجرتك كما أمرتني أمي، إني أعلم كم سأتعرض من ألم لفراقك ولعدم رؤيتك إلى الأبد ولكنك كما أخبرتني أمي أفضل أب يمكن أن يوجد»

فقال توران: أوقد النار يا بني أوقد النار لقد جاء الفرج لقد كنت أنت أكبر أماني، ثم هب واقفًا قائلاً:

قريبًا سيضاء هذا العالم، ثم تحسس الطين فوجد كأن عشبًا وشجيرات صغيرة تنبت فضحك ضحكات هستيرية وقال:

لقد كان ما يجب أن تفعله يا ولدي والآن قد جاء دوري فظل شهورًا وسنواتٍ ينتظر أن تنمو الشجيرات وتثمر حتى إذا نمت وأثمرت ظل يصرخ بصوت عال ستبصرون عما قليل ما سيحدث، سأبصركم جميعًا.

إن بصره يرتد إليه قليلاً قليلاً فقد انفتحت عيناه واندملت تدريجيًا وكان شديد السعادة فإن شجرة حياته قائمة موقدة بها النار فإن مثيلتها موجودة في هذا المجال الموازي من العالم الذي يقبع فيه حاليًا توران، فهو يعلم أن لكل إنسان زهرة أو شجرة ملك له شخصيًا من الممكن أن تكون دليل خلوده في عالم آخر حيث يحيا فيه خالدًا.

وظل في سعادة متزايدة حتى اكتمل بصره فرد إليه وفتح عينيه جيدًا وظل يجري ويهرول من مكان إلى مكان باحثًا عن شجرة حياته

الموازيــة في هــذا العــالم فــوق الجبــال والأوديــة فنظــر إلى فــوق جبــل عــالٍ فوجدهــا فــوق الجبــل قــد أبصرهــا مــن بعيــد فظــل يضحــك بقــوة وهســتيرية وهــو يقــول:

شجرتي الآن جاء وقتي واكتمل عقد زمني.

ثــم صعــد الجبــل ورفــع كفــه بقــوة نحــو الســماء التــي يضربهــا البــرق والرعــد وأشــار إليهــا قائــلاً ليــضرب البــرق شــجرة حيــاتي، فــضرب البــرق الشــجرة فاشــتعلت فيهــا النــيران، ثــم ضحــك ســعيدًا واتجــه نحــو الشــجرة المشــتعلة وأخــذ غصنًــا مشــتعلاً وظــل يحركــه يمينًــا ويســارًا فرحًــا، ثــم عــزم عــلى الذهــاب إلى تلــك الشــجيرات في البقعــة الطينيــة حتــى يأخــذ منهــا ســيقانًا وأغصانًــا وصنــع قناديــل منهــا مشــتعلة وأوقدهــا مــن بقعــة زيــت قــد رآهــا وذهــب إلى مــكان زار فوجــده كــما هــو في أســوأ حالاتــه فقــرب إليــه القنديــل المشــتعل فأحــس زار بحــرارة النــار.

فصرخ قائلاً: نار نار من استوقدها.

فقال له توران: إنه أنا فأدي فريضتك إليّ.

فقال له زار: من أنت يا سيدي؟

فقــال: إننــي أنــا تــوران الــذي أشــعل النــار في هــذا العــالم، ثــم تابــع كلامــه وقــال:

قريبًــا ســتبصر أنــت والآخــرون وعليــك مــا يجــب أن تفعلــه لتصحــح أخطائــك في حقــي.

فقال زار: سمعًا وطاعة يا سيدي توران العظيم واللعنة على مردوخ في هذا العالم بعد ذلك.

ثم قرب إليه توران لوحًا من الطين قد جففه توران من بعد أن كتب عليه وصاياه وقال لزار: هذه قناديلي وهذا لوحي وعليك المحافظة عليه وتعليم الآخرين منه.

فقال زار وهو يتحسس اللوح الطيني: سمعًا وطاعة سيدي توران العظيم، ثم تركه.

وفي مشهد مهيب يحمل العميان القناديل وترتد إليهم أبصارهم وهم يذكرون توران ويلعنون مردوخ ويطعمون من ثمار طازجة، وقد بلغ ذلك الأمر مردوخ فقام من عرشه غاضبًا فقال له محاقيل خائفًا:

إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟

فقال له وهو غاضب: إلى مكان حيث لم تعلموا أمر ساكنيه جيدًا فإنكم لا تحسنون عملكم. فدفعه جانبًا فسقط محاقيل من مكانه وصرخ لسقوطه من مقامه، وولج مردوخ من سمائه إلى سماء ذلك العالم الظلامي، وكان أول ما وجد شجرة توران الموقدة ووجد عندها توران.

فقال لتوران: إن النهاية هي نفسها كالبداية، لقد نجحت مرة أخرى في استيقاد نار في هذا العالم.

فقال له توران: لقد صنعت قدري كما تبصر، أم أنك مستعد

عـلى جحـد هـذا الفعـل مـرة أخـرى؟

فقـال مـردوخ ضاحـكًا: إني أشـير عليـك بحمـل فـأس وأن تجيـد اسـتخدامه.

فـرد عليـه تـوران: إني أقـول لـك بأنـه ليـس كل الفـؤوس للزراعـة بـل مـن الممكـن اسـتخدامها في قطـع الأشـجار وتكسـير الأصنـام.

فاستوضح منه مردوخ قائلاً: أتريد أن تقطع شجرة الرب.

فـرد عليـه تـوران وعـلى وجهـه ابتسـامة كبـيرة: ليـس لـك شـجرة تحكـم مـن علوهـا الباقـين في هـذا العـالم، وليـس لـك وصايـة أو سـلطان عـليّ، ولعلمـك لـن يكـون لـك أتبـاع في عالمـك مصنوعـين مـن الحجـارة أو الحديـد خاضعـين لأمـرك كـما تخطـط.

فرد عليه: الآن أنت تعلم ما في نفسي.

ثـم قـال تـوران: إن كل واحـد ممـن هـم في هـذا العـالم سـيكون لـه ملـك مـا يتمنـى خالديـن ليـس في صدورهـم غـل أو نيـة إغـواء وإنـك لـن تسـتطيع أن تذهـب بنورهـم فلـكل نـور مـادي محفـوظ، ولـن يكـون هنـا عنـصر يمثـل الـشر غـير المرغـوب فيـه فـلا شر في أنفسـنا حتـى نخفيـه بإيجـاد عنـصر يمثلـه، وحتـى زار فقـد عفـوت عنـه ولـن يكـون منبـوذًا هنـا إلا أنـت.

ثـم قـال مـردوخ: لقـد بـدأ الأمـر يحـدث معـك أنـت تعـود شـابًا ويمتـص جسـدك الضـوء.

فقال توران: هذه البداية فقط وقريبًا ستشرق شمسي على هذا العالم ولقد تمت كلمة القدر عليَّ وعلى هذا العالم ليكون كاملاً كمالاً مطلقًا وإلى الأبد على غير إرادتك ولن يكون لك ذكر في هذا العالم.

فقال مردوخ منفعلاً: أنا لا أهزم أبدًا، بل أحق أن تقول بأنه لن يكون لك أو لهذا العالم أي ذكر عندي.

ثم أوصد مردوخ عليه الباب التاسع إلى الأبد.

فضحك توران سعيدًا بانتصاره وببقائه الأزلي إلهًا منفردًا ورب قدري لهذا العالم.

(تمت ٢٠١٨/١١/٢)

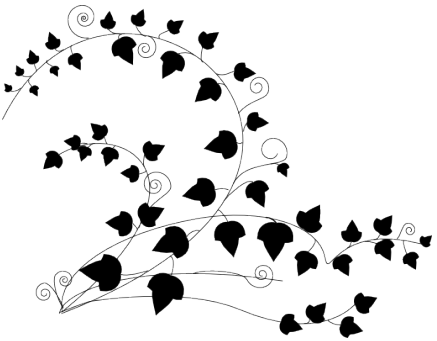

الفهرس

مقدمة ---------- ٢

(أنا أحمل غرسًا فلا تقتلون) ---------- ٣

تذكر تذكر ---------- ٨

حجر صغير يسند الصخرة الكبيرة ---------- ١٥

توران يتذكر مردوخ ---------- ٢٤

لقد سحرتني تلك المرأة ----------٣٠

اجلس فوق تلك الصخرة ---------- ٣٥

لا تشعل نارًا في ملكي ---------- ٤٠

توران يتذكر ---------- ٤٦

توران في هيكل الأرباب- ---------- ٦٥

محفل الأرباب ---------- ٧٣

إن السمع لا يفنى ---------- ٧٨

أخ الناس الخفي ---------- ٨٢

"زار" في عالم توران ---------- ٨٨

حقيقة الآلهة ---------- ٩٥

ما تتمناه سيكون لك قدرًا ---------- ١٠٧

توران

رحلة إلى الجنوب ---------- ١١٥

سأصنع قدري ---------- ١٢٥

الخاتمة ---------- ١٣٧

فهرس المحتويات ---------- ١٤٧

توران

سجن التسعة أبواب

وازدادت تلك الصرخات حتى توقفت تمامًا تصاحبها ضحكات من صاحب ذلك الصوت القوي العظيم، ثم سكن كل شيء وضرب الرعد المكان ودوى دويًا شديدًا ثم سمع صاحب ذلك الصوت يخاطبه بعنف:

«أنت .. لا تشعل نارًا في مُلكي»